

حياة المرأة الناطقة وملاحم من حياتها العامة في (الضوء اللامع)، والمصادر التاريخية المناظرة

دكتور / عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح
مدرس التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

تقديم :

في محاولة منى لتوضيح مفهوم عنوان البحث، ونطاقه أقول : يركز البحث على استنباط الملاحم، التي تُشكّل - فى مجموعها - مظاهر حياة المرأة الخاصة والعامة، وذلك عن طريق استقراء ما تضمنه كتاب : (الضوء اللامع) للسخاوى فى المقام الأول ؛ نظراً لما به من تراجم كثيرة للنساء، ومعلومات غزيرة فى هذا المجال . وتم الاستعانة بالمصادر التاريخية الأخرى، التى اهتمت بتراجم النساء، اللاتى ركز عليهن السخاوى فى كتابه ؛ من أجل رسم صورة واضحة متكاملة - ما أمكن - عن النساء، وأسرهن، والظروف التى أحاطت بهن، وأثرت فى حياتهن الخاصة والعامة سلباً وإيجاباً . ومعنى ما تقدم : أن البحث سيعنى بتتبع أخبار هؤلاء النسوة لدى المؤرخين المعاصرين للسخاوى، أو السابقين عليه، أو حتى اللاحقين به، ما دامت لديهن اهتمامات بتراجم النساء المذكورات فى كتاب السخاوى (الضوء اللامع) . ولا يمنع هذا من تلمس ملاحم جديدة من حياة المرأة فى المصادر الأخرى مما قد لا يوجد فى تراجم النساء فى كتاب السخاوى، شريطة أن تكون تلك الملاحم لنساء ينتسبن إلى القرن التاسع الهجرى، أو تكون الأحداث التى تستنبط منها تلك الملاحم قد وقعت فى القرن نفسه ؛ لأنه الإطار الزمانى الخاص بهذه الدراسة .

أولاً- حول تراجم النساء في كتاب (الضوء اللامع) للسخاوى :

١- يعد كتاب (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) للسخاوى (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) حلقة فريدة متميزة، فيما يختص بتراجم نساء القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى . فبالرغم من سبق ابن حجر (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) فى ميدان التراجم على القرون فى كتابه : (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة)، إلا أن اهتمامه بتراجم النساء فى كتابه ظل محدوداً، من حيث عدد تراجمهن، والمادة العلمية التى تحويها هذه التراجم، وما ترتب على ذلك من عدم إفرادهن فى باب خاص بهن^(١). لقد تفوق التلميذ على شيخه وأستاذه فى هذا المضمار ؛ إذ أفرد الجزء الثانى عشر والأخير من موسوعته لتراجم النساء، فأبرز بذلك ظروفهن وملامح حياتهن الخاصة والعامة، وسلط الأضواء الكافية على مشاركتهن فى نواحي الحياة المختلفة (سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وثقافياً)، فأتى كتابه رائداً، ونسيج وحده فى هذا المجال .

٢- بلغ عدد تراجم النساء فى (الضوء اللامع) ١٠٧٥ ترجمة^(٢)، وهو عدد هائل إذا قيس بكتب التراجم السابقة عليه، أو اللاحقة به . وقد رتب السخاوى هذه التراجم على حروف الهجاء، بدءاً بالهمزة وانتهاء بالياء . ويلاحظ تفاوت عدد التراجم داخل الأبواب المختلفة^(٣)، وخلو بعضها من التراجم^(٤)، إضافة

(١) وزع ابن حجر ما تيسر له من تراجم النساء على بعض أجزاء كتابه : (الدرر الكامنة، نشر : أم القرى للطباعة ١٩٦٦م)، حسب الحرف الهجائى، الذى تبدأ به أسماءهن وفق ترتيب معين . راجع الجزء الأول (ترجمة : اتفاق) ص ٨٣-٨٤ (رقم ٢١٦) فى آخر من اسمه (إبراهيم)، وكذلك تراجم النساء الواردة فى صفحات : ٣٧٠، ٣٨٣-٣٨٤، ٤١٢، ٤٤١-٤٤٢ . وكذلك الجزء الثانى صفحات : ٧، ٨١-٨٢، ١٩٢-١٩٣، ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٣٢، ٢٩٢، ٣٠٦، ٣١٣، ٣٢٢، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٢ . والجزء الثالث صفحات ٣٠٧، ٣١٠، ٣١٣، ٣٥٥، ٣٥٨ . أما الجزء الرابع، فقد خلا من تراجم النساء . واقتصر الجزء الخامس والأخير على صفحات : ١١٥، ١٦٠، ١٦٧-١٦٨، ١٦٩-١٧٠، ١٧٧، ١٨٠-١٨١ .

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى (الناشر : دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة، د.ت) ج٢ كاملاً (كتاب معجم النساء)، ويمتد من ص ٢-١٦٨ .

(٣) فمثلاً : توجد أبواب بها عدد كبير من التراجم، مثل : حرف الخاء المعجمة (به ٦٥ ترجمة من رقم ١٣٠-١٩٤، ص ٢٣-٣٣) . وحرف الزاى المنقوطة (به ٨٩ ترجمة من رقم ٢١٣-٣٠١، ص ٣٧-٥١)، وحرف السين المهملة (به ١٠٤ ترجمة من رقم ٣٠٢-٤٠٥، ص ٥١-٦٧) . بينما يقل البعض الآخر إلى ترجمتين، كما فى (حرف الدال رقم ١٩٥-١٩٦، ص ٣٣)، وبعض الأبواب يحوى ترجمة واحدة فقط، كما فى (حرف الضاد المعجمة رقم ٤٤١، ص ٧٢) .

(٤) مثل : حرف الثاء فى الأسماء، وحرف الذال فى (الكنى) .

إلى تفاوت التراجم الواردة طولاً وقصراً^(١)، حسب ما توافر للسخاوى من مادة علمية، وإن كان الغالب على تراجم الكتاب طابع القصر .

٣- يلاحظ - أيضاً - أن أعداد أعلام النساء المترجم لهن، ممن عُرِفَتْ أسماءهن بلغت ٨١٧ امرأة^(٢)، بينما بلغت تراجم من عُرِفْنَ بِكُنَاهُنَّ ١٨٧ ترجمة^(٣)، وتضاءلت أعداد المبهمات منهن إلى ٧١ ترجمة^(٤) .

٤- لم تقتصر تراجم السخاوى للنساء على بلد بعينه، بل شملت عدة بلدان، منها : مصر، والشام (خاصة مدن : دمشق، وحلب، والقدس)، والحجاز (مكة، والمدينة^(٥)، والطائف^(٦)، واليمن^(٧)، والأندلس^(٨)، وصقلية^(٩)، والحبيشة^(١٠)، والنوبة^(١١) . ومن خلال تتبع جنسيات المترجمات من النساء تبين أن الكميات يأتين في المرتبة الأولى من حيث عدد التراجم (لاسيما بابى الأسماء، والكنى)^(١٢)، وبعدهن المصريات (حيث شغلن كثيراً من المترجمات فى باب الأسماء، ومعظم باب المبهمات^(١٣)، ثم الشاميات^(١٤) . ويجب أن يوضع فى الاعتبار أن هناك عدداً من النساء لم يصرح السخاوى بالبلاد التي ينتمين إليها^(١٥)، فهن خارجات عن الإحصاءات ؛ لأننا لم نستشف من خلال مضمون التراجم البلاد التي ينتسبن إليها .

-
- (١) من التراجم المطولة : ترجمة رقم ٤٨٢ ص٧٨-٧٩، ورقم ٦٧٤ ص١٠٧-١١٢ (ولعلها أطول تراجم الكتاب) . ومن التراجم القصيرة جداً : رقم ٤٨٥ ص٧٩، ورقم ٤٩٩ ص٨٢ .
- (٢) تمتد تراجمهن من ص٢-١٣٣ .
- (٣) تمتد تراجمهن من ص١٣٣-١٦١ .
- (٤) تمتد تراجمهن من ص١٦١-١٦٨ .
- (٥) راجع تراجم أرقام : ٨، ٣١، ١٥٢، ٢٠٥-٢٠٧، ٢٠٩، ٢٧٠، ٢٩٨، وغيرها .
- (٦) راجع ترجمة رقم : ٤٩٨ .
- (٧) راجع تراجم أرقام : ٢٢٢، ٢٥١، ٣٩٩، وغيرها .
- (٨) راجع ترجمة رقم : ٤٣١ .
- (٩) راجع ترجمة رقم : ٤٤٣ .
- (١٠) راجع تراجم أرقام : ٢١٤، ٣٩١، ٤٤٠ . (١١) راجع ترجمة رقم : ٥٢٤ .
- (١٢) بلغ عدد تراجمهن حوالى : ٣٩٠ ترجمة (مثل أرقام : ١، ٣، ١٨، ٣٤، ٤٤، وغيرها كثير) . ويلاحظ أن جميع تراجم باب (الكنى) مبدوءة بلفظة (أم) .
- (١٣) بلغ عدد تراجمهن حوالى : ٣٢٦ ترجمة (مثل أرقام : ٢، ٤-٥، ٧، ٩-١٠، ١٢، وغيرها كثير) . وتبدأ التراجم فى باب (المبهمات) بالفاظ، مثل : والدة، وجدة، وزوجة، وعمة، وابنة، وأخت .
- (١٤) بلغ عدد تراجم الشاميات حوالى : ٧٧ ترجمة (مثل أرقام : ٦، ١١، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٧، وغيرها) .
- (١٥) من ذلك تراجم أرقام : ٤٢٦، ٥٦٧، ٦٠٢، ٦٨٧ .

٥- إذا كان عدد النساء المكيات هو الغالب - كما ذكرنا سلفاً - فلا يعنى ذلك أن سمات المرأة العامة، والخاصة - فى هذه التراجم - هى سمات المرأة المكية غالباً ؛ لأن عدداً غير قليل منهن مصريات الأصل، لكنهن توجهن للحج، ومكثن بمكة مجاورات فترات ليست بالقصيرة، فانتسبن إلى مكة بحكم المُكث، والمقام والاقتران، والوفاة أحياناً^(١). ويمكن القول : إن مجلد تراجم النساء لدى السخاوى يعطى صورة جيدة لأحوال النساء المسلمات فى القرن التاسع الهجرى فى بلدان الإسلام بعامة، وفى مصر بخاصة على أساس أنه مؤرخ مصرى، وتراجمه للمصريات أكثر تفصيلاً ووضوحاً وشمولاً من غيرهن من نساء الأقاليم الإسلامية الأخرى .

٦- لم يركز السخاوى فى تراجم النساء على طبقة دون طبقة، وإنما امتدت شاملة قطاعاً عريضاً من طبقات المجتمع، فاهتم بنساء البلاط الممالكى من أمهات، وأخوات، وبنات، وزوجات السلاطين^(٢)، والأمراء^(٣)، والقادة^(٤)، والموظفين الكبار^(٥)، والأعيان^(٦)، والعلماء^(٧)، والفقهاء^(٨)، والقضاة^(٩) . واهتم - كذلك - بتراجم الجوارى^(١٠)، وأمهات الأولاد^(١١) .

وللنساء المصريات العاديات نصيب - أيضاً - فى تراجم السخاوى، حيث

-
- (١) من ذلك ترجمة رقم : ٢٠ (والدة السخاوى)، ٦٤٠، ٨٠٥ .
(٢) راجع تراجم أرقام: ٨٩، ٢٦، ٥، ١٠١، ١٩٢، ٢٢٠، ٤٠٣، ٤٢٧، ٧٠٣، وغيرها .
(٣) راجع تراجم أرقام : ٢، ٢٥، ٨٨، ٢٣٧، ٢٦١، وغيرها .
(٤) راجع تراجم أرقام : ١٤٣، ١٥٠، ٣٥٢-٣٥١، وغيرها .
(٥) راجع تراجم أرقام : ٣٠٢، ٤١٨، ٥٤٥، وغيرها .
(٦) راجع تراجم أرقام : ١٥٠، ٥٣٢، ٧٠٨، وغيرها .
(٧) راجع تراجم أرقام : ٦٨٤، ٦٨٩، ٧٠٥، ٧٦١، وغيرها .
(٨) راجع تراجم أرقام : ١١، ١٩، ٤٧، وغيرها .
(٩) راجع تراجم أرقام : ٣٧، ٣٩، ٢٥٤، وغيرها .
(١٠) راجع ترجمة رقم : ٤٠٤ .
(١١) راجع تراجم أرقام : ٦٠، ٩٣-٩٤، ٥٦٢، ٧١٣، ٨١٧، وغيرها .

ترجم لمتزوجات من رجال من العوام^(١)، ومقترنات من علماء^(٢)، وقضاة^(٣)، وذوى مناصب^(٤).

ثانياً- ملامح من حياة المرأة الخاصة :

هذا هو الشق الأول الرئيسى من البحث، وفيه نُعنى - فى ضوء المادة المتاحة - برسم ملامح الحياة الخاصة بالمرأة فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى . ويأتى على رأس الموضوعات المرتبطة بهذا الشأن قضية (الزواج) من حيث : الظروف التى يتم فيها، ومقاييسه، ومتوسط سن المرأة عند الزواج، ومدة استمراره، ودرجة وقوعه بين الأقارب والأبعاد، ومدى تحقق التكافؤ بين طرفيه من جهة السن، والطبقة، والمنزلة الاجتماعية، والقدرة المادية . وكذلك رصد قضية (العنوس)، وهل كانت من الانتشار بحيث تمثل ظاهرة لافتة للنظر - آنذاك - فى مجتمع يفتح أبوابه على مصاريعها للزواج المتعدد ؟ وأيضاً دراسة ما يترتب على الزواج من آثار كوجود الأولاد (ذكوراً، وإناثاً) وأعدادهم، وتأثيرهم فى حجم الأسرة، ودورهم فى حياة الأم، وعلاقتهم بها . وقد يقتصر الإنجاب على الإناث فقط، وقد ينعدم على الإطلاق مع ما قد يترتب على ذلك كله من مشكلات تؤثر فى مسيرة الزواج .

من المعلوم أن الحياة الزوجية لا تدوم إلى الأبد، وإنما يطرأ عليها - فى وقت مبكر، أو متأخر - ما يقطع انسيابها وتدفعها . فهناك المشكلات والخلافات الزوجية، والأسباب الطارئة من الخارج، التى قد تُفضى إلى (الطلاق) . وقد يجمع الرجل بين زوجتين فى وقت واحد، وما ينبجم عن ذلك من تصدع فى بيت الزوجية، قد يؤدى إلى تطليق الزوجة الجديدة ؛ حفاظاً على تماسك الأسرة . ووفاة أحد الزوجين - أيضاً - من الأمور الطارئة التى تُنهى الحياة الزوجية . وغنى عن البيان ما يطرأ على (الطلاق)، و(الوفاة) من احتمال مُكث

(١) راجع تراجم أرقام : ٤٠-٤٢، ٣٠٥، وغيرها .

(٢) راجع تراجم أرقام : ١٣، ٢١، ٤٢، ٧٥١، وغيرها .

(٣) ترجمة رقم ٢٠٥، ٢٥٤، وغيرها .

(٤) راجع تراجم أرقام : ٤، ١٦، ٧٣، ٧٩، ٢٤٠، وغيرها .

الرجل أو المرأة دون زواج، أو استئناف كل منهما لحياته الزوجية في ظل اقتران الرجل بامرأة جديدة، وزواج المرأة من رجل آخر .

تجدر الإشارة إلى اهتمام البحث بمشكلات المرأة ومعاناتها المختلفة، فهناك المرأة المطلقة، والأرمل، والثكلى، مع ما تثيره هذه النوعيات وغيرها من النساء من ظروف عصبية غير مواتية . وسوف يعالج البحث هذه الأمور من خلال أطر أشمل وأوسع، حيث يرصد أوضاع المرأة الاقتصادية، والصحية، والنفسية، والاجتماعية .

(١) الزواج :

نتناول - تحت هذا الموضوع الكبير - مجموعة من القضايا المهمة، التي نحاول تجليتها في ضوء المادة العلمية المتاحة . ومن هذه القضايا :

أ- الظروف التي يتم فيها الزواج : إذا سارت الأمور في طريقها المعهود، فإن الفتاة تنشأ في ظل أبويها، ويتقدم الرجل الراغب في الزواج منها إلى أسرتها، ويقوم بالاتفاق مع والدها، إذا ما ارتضاه زوجاً لابنته، وذلك - بالطبع - بعد استشارة الفتاة نفسها، ووالدتها. ومن خلال استعراض النصوص التاريخية بهذا الشأن في فترة البحث، وجدنا نماذج عديدة متنوعة، منها : ما أورده السخاوى في ترجمته للقاضي عز الدين أبي البركات (أحمد بن إبراهيم بن نصر الله العسقلانى ٨٠٠-٨٧٦هـ)^(١)، إذ ذكر أنه كان لهذا القاضي ابنة، يغتبط بها اغتباطاً عظيماً، ويميل إليها ميلاً تاماً . وقد ارتضى تزويجها من أحد نوابه (الشهاب الجوجرى)^(٢)، فأنجبت منه ولداً ذكراً^(٣) . ويغلب على الظن أن

(١) راجع ترجمته في : الذيل على رفع الإصر (ط.الدار المصرية للتأليف والترجمة) ص١٢-٦٢ .
(٢) الجوجرى : نسبة إلى (جوجر)، أو إلى (جوجر) . ويذكر ياقوت : أنها بليدة بمصر من جهة دمياط في كورة السمنودية . (معجم البلدان، ط. دار الكتب العلمية) ج٢ ص٢٠٧ . ومما جاء عنها في (القاموس الجغرافى، ط.الهيئة العامة للكتاب)، القسم الثانى، ج٢ ص٨٦ : جوجر من أعمال الغربية . وترجم السخاوى في (الضوء اللامع) ج١ ص٣٤٩، للشهاب الجوجرى، فذكر أنه أحمد بن عبد العزيز بن محمد ابن عبد الرحمن الجوجرى الأصل، القاهرى الحنبلى، أخو الجمال عبد الله بن هشام لأمه . ولد فى سنة ٨٣١هـ بالقاهرة، ونشأ فى حضن أخيه، واختص ببعض العلماء، وحضر دروساً فى الفقه لدى أخيه . ثم لازال يجتهد، ويتقرب من قاضى الحنابلة - وهو المذكور فى المتن - حتى زوجه ابنته، التى أنجبت منه ولداً .
(٣) الذيل على رفع الإصر ص ٣٨ .

جميع الأطراف - بما فيها الأم، وابنتها - رضيت عن هذا الزواج، خاصة أن والد الفتاة قاضٍ حصيف، حريص على إسعاد ابنته، مدقق في اختيار شريك حياتها. وقد يزوج الأب ابنته لرجل فقير، فتعترض أمها، ثم توافق - في النهاية - على مفضل. حدث ذلك مع القاضي الشهاب أحمد بن أبي بكر بن علي الناشرى، الذي تزوج ابنته زينب لابن أخيه أبي بكر^(١)، فبورك لهم فيه، ورُزق منها الأولاد^(٢). وبذلك ثبت صواب رأى الوالد، ولعل ابنته كان رأيها موافقاً رأيه، وإلا لأبدى لنا السخاوى تحفظها، كما أورد تحفظ أمها.

أحياناً يتعنت الأب مع ابنته، ويكرهها على الاقتران بمن لا تحب، وربما كانت متعلقة بغيره، وربما لم تجرؤ على إعلام الوالد بذلك، فبدا معذوراً في تصرفه هذا؛ لعدم وقوفه على رغبة ابنته الحقيقية. ولا نلمح للأُم وجوداً، فقد تكون متوفاة، أو ضعيفة الشخصية لا تأثير لها. فها هي سعادة أم الهدى بنت الجمال أبي السعود محمد بن البرهان إبراهيم بن علي بن أبي البركات بن ظهيرة المكية^(٣)، وقد زوّجها أبوها عبد القادر بن نجم الدين بن ظهيرة. فماذا كانت النتيجة؟ على الرغم من إنجابها أنثى، كان يتوقع توفيقها بينهما، إلا أنها عاملته معاملة سيئة، ملؤها الكراهية والبغضاء. ويبدو أنها كان لها أولاد من زوج سابق عليه، فقامت هي وعيالها بطرده من المنزل، فتشتت شمله، ولجأ إلى أعيان مكة وكبرائها، وعلى رأسهم أميرها، لكن شفاعاتهم له باءت بالفشل، ورفضت عودته إليها ثانية^(٤).

وثمة نصوص تاريخية في تراجم بعض نساء ذلك القرن (التاسع الهجرى)، تفيد تقدم الرجال للزواج من بعض بنات العائلات، وهن في كنف آبائهن وأمهاتهن عن طريق وساطة - أو سفارة - للتحدث مع والد الفتاة في

(١) هو أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن علي بن محمد الناشرى. ولد في سنة ٧٧٣هـ، وكان نجياً فاضلاً، ولى عقد الأنكحة بـ (زيد). وكان يلى الإصلاح بينهم، ويقوم بتغسيل الموتى، ونزول قبورهم، وتوجيههم للقبرة. ورغم عدم غناه، فقد حج أكثر من مرة. ولما ضعفت صحته، صار أولاده ينهضون بما كان ينهض به. (الضوء اللامع ٧٣/١١-٧٤/رقم ٢٠٣).

(٢) المصدر السابق ٣٩/١٢ (رقم ٢٣٠).

(٣) راجع ترجمة والدتها المفصلة في (السابق) ج٦ ص٢٦٤-٢٧١ (رقم ٩٠٤).

(٤) المصدر السابق ٦٤/١٢ (رقم ٣٨٨).

ذلك الشأن . من ذلك : تزوج يحيى بن الأمير يَشْبِكُ الفقيه (١) من زينب بنت المحب محمد بن محمد، التي تكنى بـ (أم الحياء)، وهى ابنة ابن الشحنة (٢)، وذلك بسفارة الفقيه البدر بن عبيد الله (٣) . ولعل قرابة الفتاة المذكورة من الفقيه الكبير (البدر) هى التى دفعت إلى تكلف هذه الوساطة . لكن يبدو أن الفتاة وأسرتها كانوا يتطلعون إلى مستوى معيشى راقٍ من جراء الاقتران بابن الأمير الفقيه، فلما خاب رجائهم، وقع الفراق . ثم تقدم للزواج منها سبط الإمام ابن حجر، فسُرَّ بذلك والد الفتاة سروراً كبيراً، ونجحت هذه الزيجة واستمرت حتى وفاة الزوجة فى طاعون سنة ٨٩٧هـ (٤) . وقد يكون نجاح هذا الزواج الأخير راجعاً إلى توافق طرفيه علماً وفقهاً، وقناعة كليهما بمستواهما الاجتماعى والمادى المنشود . وكذلك زواج فاطمة بنت الشريف الفخرى بن جاجق من أبى البركات الشيشينى بسفارة الولوى بن قاسم (٥) . ولعل مكانة أسرة الفتاة أدت إلى تلك الطريقة فى التقدم للاقتران بها، خاصة إذا علمنا أن أمها هى فرح بنت ناظر الجيش كريم الدين عبد الكريم اللخمي (٦) . وقد وُقِّعَ هذا الزواج، لكن الغالب أنه لم يدم طويلاً ؛ فسرعان ما توفيت الزوجة الشابة وهى فى نفاسها سنة ٨٥٢هـ (٧) .

(١) راجع ترجمته فى (الضوء اللامع) ١٠/٢٦٤-٢٦٥ (رقم ١٠٥٣) .

(٢) راجع ترجمته فى (ذيل رفع الإصر) ص ٤٠٦-٤٢٨ .

(٣) الضوء اللامع ١٢/٤٩ (ترجمة ٢٩٢) . (٤) المصدر السابق ١٢/٤٩-٥٠ (رقم ٢٩٢) .

(٥) السابق ١٢/١١٣-١١٤ (رقم ٦٨٥) . أبو البركات الشيشينى هو كمال الدين بن قطب الدين محمد ابن عبداللطيف القاهرى . كان قريباً - من جهة النساء - للولوى بن قاسم، وعن طريقه تزوج ابنة القاضى نور الدين بن الكبير بعد توفيقه عن تزويجه ؛ لعدم الكفاءة . لكن ابن قاسم استنابه عنه فى قضاء دمياط، وتوسَّط له، فتزوجها، ولم تلبث أن ماتت، وورثها، فحسن حاله . (السابق ١١/٧، رقم ١٦) .

(٦) هو عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز المصرى . ولد سنة ٧٣٦هـ، ونشأ فى كتف عمه المباشر بديوان الجيش، فاهتم به، وحفظه القرآن، وتعلم فنون الكتابة، حتى باشر فى دواوين الأمراء، ثم ترقى لنظارة الجيش سنة ٧٩٢هـ، ودخل مع الظاهر برفوق بلاد الشام سنة ٧٩٣هـ، ثم عاد معه، وعزل عنه . ويبدو أنه أُقيل من منصبه مع نهاية سلطنة برفوق سنة ٨٠١هـ، وظل خامل الذكر حتى وفاته سنة ٨٠٧هـ . وهو جد أولاد ابن حجر لأهمهم (والد أنس زوج ابن حجر) . (راجع: إنباء الغمر بأنباء العمر، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) لابن حجر ج ٢ ص ٣٠٦-٣٠٧ (رقم ١٢)، والضوء اللامع ٤/٣٠٧-٣٠٨ (رقم ٨٢٩) .

(٧) المصدر السابق ١٢/١١٣ (رقم ٦٨٥) .

أورد لنا الصيرفي (ت ٩٠٠هـ) قضية مطولة مؤرخه بتاريخ ٨٧٥هـ مفادها : أن امرأة رفعت قضية إلى قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفي، تذكر فيها أنها فقيرة، غاب عنها أبواها مدة تزيد على ثلاث سنين، بعيداً عن القاهرة وأعمالها ؛ مما اضطرها إلى سؤال الناس . وهي تتقدم بطلب تزويجها ممن يرغب فيها على مهر المثل والكفاءة ؛ صدقة عليها . فكتب قاضي القضاة إلى الصيرفي للنظر في استيفاء الشروط الشرعية لهذا الزواج، فوجد بيّنة دالة على غياب الوالدين، واستقدم الشهود، وعقد عليها غلام لشخص من الجند اسمه فارس من المماليك السلطانية . ودخل الغلام بها وهي بنت اثنتي عشرة سنة، وكانت دميمة الخُلقة . واشترط الصيرفي على الزوج عدم الوطء^(١)، لكنه وطئها، ثم طلقها بحضرة شهود آخرين . وكانت حالة الفتاة طالبته بتطليقها بعد أن سألته جميع حقها . ويبدو أنه ماطل فاضطرت أن تكتب على الفتاة تعهداً بدفع سبعة دنائير للزوج مقابل تطليقها . وعلى كل، فقد رفع الأمر إلى يشبك بن مهدي الدوادار الكبير^(٢)، فاستدعى الصيرفي، وأجرى تحقيقاً في الأمر، انتهى باتهام الغلام وأستاذه بالإساءة إلى الفتاة^(٣) ؛ مما جعلها

(١) ولا أدري كيف يتم العقد والدخول، ثم تذكر الرواية أن الصيرفي اشترط عليه عدم الوطء " ولم آذن له في الوطء "، فذلك أمر غير منطقي وغير مفهوم ؛ إذ الجماع من الآثار المترتبة على عقد الزواج، لاسيما وقد بنى زوجها !

(٢) راجع ترجمته في (الضوء اللامع) للسخاوي ج١٠ ص٢٧٢-٢٧٤ (رقم ١٠٧٧) . الدوادار : لقب يطلق على حامل دواة السلطان أو الأمير، أو غيرهما . وهو مركب من لفظين : أحدهما عربي وهو الدواة التي يكتب منها . والثاني فارسي وهو دار بمعنى : ممسك . وهو - أيضاً - يقوم بتبليغ الرسائل من السلطان، وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم الشكاوى إليه، والمشاورة بشأن من يحضر إلى باب السلطان، وتقديم البريد . وفي عهد الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٩م) زاد تحكم الأمراء الدوادارية، وتحكموا في جليل أمور الدولة وحقيقتها من مال وبريد، وأحكام، وعزل، وولاية، خاصة أيام الناصر فرج (٨٠١-٨٠٨هـ/١٣٩٩-١٤٠٥م) على يد الأمير يشبك، وكذلك في عهد المؤيد شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م) بما يقارب ذلك . (راجع : صبح الأعشى للقلقشندي، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ج٤ ص١٩، ج٥ ص٤٦٢، والخطط للمقريزي، (نشر : مكتبة الثقافة الدينية) ج٢ ص٢٢٢-٢٢٣، والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي، ط. الهيئة المصرية للكتاب ص١٣٩) .

(٣) صرح الصيرفي في نص الرواية بأن الغلام وأستاذه فعلا بالفتاة ما لا يجوز فعله، وأخذها منها ما لا يستحقان أخذه . (إنباء الهصر بانباء العصر، ط٢-الهيئة المصرية العامة ٢٠٠١م) ص٢٢٨. وأنا أتساءل متعجباً: كيف لا توقع العقوبة المناسبة بالأستاذ، وقد نال من زوجة غلامه على نحو ما صرح الصيرفي؟ كيف يكيل الصيرفي المديح لعظيم الدنيا يشبك الدوادار-على حد تعبيره-زاعماً أن تصرفه تجاه الغلام وأستاذه صدر من أهله في محله؟! .

تفر منهما إلى خالتها . وأمر يشبك بتعزيز الغلام والتشهير به ، وأفلت أستاذه من العقوبة بعد تدخل الشفعاء . وأمر قاضي القضاة الحنفى بإلزام الغلام دفع أربعة دنانير للمرأة (١) .

هناك ظروف جديدة أخرى يتم الزواج فيها كأن يبني الزوج العاقد بزوجته فى غياب والدها (٢)، أو أن يكون الوالد موجوداً ويزوج ابنته لأحد الهاربين إلى بلاده الخارجين على السلطان (٣)، أو أن يدخل الأب وابنه على فتاتين بكرين فى ليلة واحدة (٤). وفى بعض الأحيان يغيب الأب، فتتولى الأم تزويج ابنتها (٥)، أو يغيب الوالدان لأسباب متعددة، فيتولى تزويج ابنتهما وصي مؤتمن (٦)، أو

(١) راجع نص القضية فى (إنباء الهصر بآباء العصر) ص٢٢٦-٢٢٨ .

(٢) حدث ذلك مع الأمير تغرى بردى والد المؤرخ المصرى المعروف، حين فر من مصر إلى القدس بعد خلع السلطان الناصر فرج بن برقوق من الملك، وتولية أخيه المنصور عبد العزيز بدلاً منه . فلما أعيد الناصر إلى عرشه، دخل على فاطمة بنت تغرى بردى التى كان عاقداً عليها قبل ذلك، ثم استدعى والدها من القدس إلى مصر، وأنعم عليه بعدة إقطاعات، وولاه منصب أتابك العسكر بمصر (مقدم الجيوش)، وذلك سنة ٨٠٨ هـ . (المنهل الصافى لابن تغرى بردى، ط. الهيئة المصرية للكتاب) ج٤ ص٣٩ .

(٣) ومثاله : تزويج الأمير ناصر الدين محمد بن دُلْغادر أمير التركمان ابنته للأتابك جاتيك الصوفى الهارب إليه الخارج عن طاعة السلطان الأشرف برسبای (٨٢٥-٨٤١ هـ)، الذى كان يعاديه أمير التركمان . (حوادث الدهور لابن تغرى بردى، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) ج١ ص٥٧ .

(٤) كما هو الحال مع السلطان الظاهر جَقَمَق (٨٤٢-٨٥٧ هـ/١٤٣٨-١٤٥٣ م)، حين دخل بنت أمير بلاد الجركس فى الليلة نفسها، التى افتض فيها ولده عثمان وصيفة أنعم عليه بها والده، وذلك سنة ٨٥٣ هـ . ولما بُشِّرَ السلطان بصنيع ولده، أنعم على من بَشَّرَه بماتى دينار ؛ فرحاً به . (المصدر السابق ١/١٧٤) .

(٥) تزوجت ألف بنت القاضى صالح بن عمر بن رسلان البلقينى ضمن من تزوجت الخليفة العباسى المستنجد بالله يوسف بن المتوكل (٨٥٩-٨٨٤ هـ)، وأنجبت منه ابنتها ست الخلفاء سنة ٨٦٠ هـ، ثم طلقها الخليفة، فعاشت البنت مع أمها التى قامت بتزويجها. (الضوء اللامع ١٠/٣٢٩-٣٣٠، رقم ١٢٤٧، ١٢/٧-٨، رقم ٣٩، ص٥٤-٥٥ (رقم ٣٢٤)، وتاريخ الخلفاء للسيوطى، ط. دار القلم ص٥٨٩-٥٩٠) . وكذلك (قرة العين بنت شقيق السخاوى أبى بكر بن عبد الرحمن) التى مات أبوها، فزوجتها أمها سنة ٨٩٦ هـ . (الضوء اللامع ١٢/١١٦، رقم ٧٠٤) .

(٦) كان الوصى على حفصة بنت يحيى بن البهاء هو الأتابك أزيك، حيث زوجها لابن أخيه، أو عمه بحضرة السلطان قايتباى فى جامع القلعة سنة ٨٩٦ هـ . (المصدر السابق ١٢/٢١ رقم ١١٥) . وكذلك زوج الوصى البدر البغدادى قاضى الحنابلة فاطمة بنت الزينى عبد الباسط بن خليل -وهى بكر - للظاهر جقمق بعد أبيها . (السابق ١٢/٩٣ رقم ٥٨٠) . وهذا يعنى : وفاة أبوى المذكورتين، فتولى الوصى تزويجهما .

أحد ذوى القربى كالعم^(١)، والجسد^(٢)، وابن العم^(٣)، والخالة^(٤) .

ب-دوافع الزواج : ونقصد بذلك الأسباب الجوهرية المؤدية للزواج فى القرن التاسع الهجرى، ومقاييس الاختيار المتبادل بين المرأة والرجل . ولا شك أن هذه الدوافع متكررة عبر القرون، وسوف أعرض لجوانبها التقليدية من الغنى، والجاه، والجمال، والدين، وأبرز ما تيسر لى من دوافع جديدة غير تقليدية، مع الوضع فى الاعتبار أن النصوص ركزت على دوافع الرجل لاختيار المرأة أكثر بكثير من تركيزها على دوافعها لاختيار الرجل ؛ لأنها معلومة ضمناً، وحال المرأة بهذا الخصوص مبنى على الستر أصلاً .

من دوافع الرجال :

الشراء : تزوجت ألف بنت عبد الرحيم بن محمد بن الجمال أربعة أزواج، ماتوا جميعاً واحداً بعد الآخر، ثم تزوجت الخامس (أبا الحسن المسلمى)، فماتت هى، فأثرى منها^(٥) . وهذا يعنى أنها ورثت أزواجها السابقين، ولعل

(١) قدمت تندو بنت حسين بن أويس مع عمها أحمد بن إدريس أمير بغداد إلى مصر، فزوجها عمها للسلطان الظاهر برقوق . (الضوء اللامع ١٦/١٢ رقم ٨٧) . وكذلك (زينب بنت إبراهيم الأردبيلى) التى نشأت بمكة . فلما بلغت أو كادت، توجهت إلى بلاد العمجم مع عمها، فزوجها ولده فى بلده (أردبيل) . (المصدر السابق ٣٨/١٢ رقم ٢٢٦) .

(٢) ولدت فاطمة بنت محمد الطونجى سنة ٨٣١هـ - وهى بنت خالة السخاوى - ومات أبوها وهى صغيرة، فكفلها جدها، وجاور بها فى مكة، ثم رجع إلى مصر، فزوجها . (السابق ١٢/١٠٤، رقم ٦٥٩) .

(٣) فاطمة بنت محمد بن على بن أبى البركات المكية : زوجها ابن عمها الجمال لأخيه على . ثم توفيت بعد ذلك وهى نفساء، فى قبة أبيها . (السابق ١٢/١٠٣، رقم ٦٥٣) . وهذا يعنى وفاة أبيها قبل ذلك، ولم يرد ذكر لأمها، فربما توفيت هى الأخرى، أو أوكلت شأنها لابن عمها .

(٤) خاتون بنت أبى البركات بن أبى البقاء : توجهت مع أمها إلى المدينة عند خالتها أم الحسين، ومكثتا هناك سنة، أو سنتين، فتزوجها عراقى . (السابق ١٢/٢٣ رقم ١٣٠) . من الواضح هنا أن الأم موجودة، والوالد - فى الغالب - متوفى ؛ إذ لم يُذكر مفارقتها الأم، ولا مصاحبتها لها بالمدينة . وأرى أن رأى الغالب فى هذه الزيجة للخالة أكثر منه للأم أو ابنتها، فهى أدرى بهذا الزوج، باعتبارها مقيمة بالمدينة، وهما عليها طارئتان .

(٥) المصدر السابق ٨/١٢ (رقم ٤٠) .

الزوج الأخير تزوجها لمالها، فتحقق له ما أراد . وكذلك كانت صفية بنت الخواججا بير محمد بن على المكية متمولة (ثرية) (١) . فلعل زواجها - خاصة الثانى - تزوجها لأجل مالها، ومال أبيها . ولعل المال - أيضاً - كان الدافع وراء حادثة غريبة تمثلت فى تزويج حسن بن سويد المصرى ابنه عبد الرحمن أحد نواب قاضى المالكية بنت القاضى فخر الدين القاياتى (٢) وهو صغير، وتزوج الأب نفسه من أختها . فلما مات القاضى القاياتى، صارت الوصاية على التركة لهما، وخلصت لهم الدار العظمى، التى كان يمتلكها القاضى القاياتى بشاطئ النيل (٣) .

تجدر الإشارة إلى أن بعض الرجال كانوا يهدفون من وراء الاقتران ببعض النساء إلى الاستيلاء على أموالهن، كما هو الحال - فيما أرجح - مع غالية بنت الحاج يوسف الأميوطى، وهى ابنة عم زوجة السخاوى، تلك التى تزوجها شمس الدين الشويهيد، ولم يحصل على طائل (٤) . وقد يحقق بعض الأزواج الطامعين جانباً كبيراً من أطماعهم المادية فى ثروات زوجاتهم، كما حدث مع امرأة تدعى (ابنة سيدى)، كانت زوجة لـ (جقمق الحاجب)، ولها ثروة زائدة، وأوقاف عديدة، بحيث تطلع غير واحد للزواج منها، حتى ظفر بها خطيب مكة المنحب أحمد بن القاسم النويرى، الذى ظفر بجزء كبير من ثروتها فى حياتها - خاصة بعد أن صارت كفيفة، وحج معها وجاور بمكة - ثم بعد موتها، لكنه لم يبلغ كل ما كان يتمنى (٥) .

(١) الضوء اللامع ٧١/١٢ (رقم ٤٣٦) . لقب أبيها المذكور (الخواججا، أو الخواجه) من القاب أكابر التجار الأعاجم من الفرس، ونحوهم كالأوربيين النصارى أو اليهود الذين يمثلون الغالبية . وهو لفظ فارسى معناه السيد . وقد يطلق عليهم لقب (الخواجكى) بزيادة كاف نسبة إليه للمبالغة، وكانت الكاف فى لغتهم تدخل مع ياء النسب . (صبح الأعشى ١٣/٦، ٦٩، ٧٣، ونظم سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، للدكتور عبد المنعم ماجد، طبع ونشر : مكتبة الأنجلو المصرية ص١١-١٢) .

(٢) هى فاطمة بنت الفخر محمد بن محمد القاياتى التى عُمِّرت حتى توفيت سنة ٨٩٧ هـ . (الضوء اللامع ١٠٥/١٢ (رقم ٦٦١) .

(٣) إنباء الغمر لابن حجر ١٧٠-١٧١ .

(٤) الضوء اللامع ٨٥/١٢ (رقم ٥٢٣) .

(٥) المصدر السابق ١٦٣/١٢ (رقم ١٠١٩) .

الجمال، والعقل، والخلق، والجاه :

لا شك أن جمال المرأة من أكبر مرجحات إقدام الرجل للزواج بها . وقد وردت هذه الصفة واضحة في تراجم عدد غير قليل من النساء، فهى (تندو بنت حسين بن أويس) كانت بارعة الجمال (١) . ولعل هذا هو الذى دفع الظاهر برقوقاً للزواج بها . وكذلك عبر السخاوى فى ترجمة (فاطمة بنت الزينى عبد الرحمن)، فقال : كانت غاية فى الجمال (٢) . وكذلك قال عن (مُغل بنت محمد بن محمد بن عثمان) : " وكانت بديعة فى الجمال " (٣) . وقد تجتمع فى المرأة أكثر من خصلة من الخصال الحسنة، التى تجذب الرجال للاقتران بها، مثل : العقل والدين والمعرفة (٤)، والحشمة والرئاسة والعقار الكثير (٥)، والرئاسة والتدبير والعقل والجمال (٦) .

من دوافع النساء :

لم تركز النصوص التاريخية الواردة فى تراجم نساء القرن التاسع الهجرى على مقاييس اقتران النساء بالرجال ؛ لما ألمحنا إليه سلفاً، والتى ربما لا تخرج عن الأسباب التى تجذب الرجال إلى الزواج بالنساء . ومن المواضع النادرة التى أشارت إلى أسباب اقتران المرأة بالرجل فى تلك الفترة، ولعلها - أيضاً - أسباب موجودة فى أذهان أوليائهن، ما عبر عنه السخاوى فى أكثر من موضع بالعزيز والوجاهة، والغنى . فهى (فاطمة بنت عبد الرحمن بن السراج البلقينى)

(١) الضوء اللامع ١٦/١٢ (رقم ٨٧) .

(٢) المصدر السابق ٩٤/١٢ (رقم ٥٨٩) .

(٣) المصدر السابق ١٢٦/١٢ (رقم ٧٧٦) .

(٤) مثل ترجمة (فاطمة بنت قاضى المالكية التاج محمد بن محمد الإخثائى) فى (المصدر السابق) ١٠٦/١٢ (رقم ٦٦٦) .

(٥) السابق ٤٧/١٢ (رقم ٢٨٠)، ٨٧ (رقم ٥٤١) . والحشمة : الحياء والانقباض، والمسلك الوسط المحمود . (لسان العرب لابن منظور، ط. دار المعارف، مادة : ح. ش. م.) ج٢ ص ٨٨٨، والمعجم الوسيط (ط. مجمع اللغة العربية) ج١ ص ١٨٣ .

(٦) الضوء اللامع ٧١/١٢ (رقم ٤٣٦) .

زَوْجِهَا وَالدهَا فِي صغَرهَا التَّقَى رَجَب بن العَمَاد قَاضِي الفِیوم فِي حِیَاةِ أبِیهِ، وَعِزَّهُ، بِحِیْثِ إِنْ القَائِمِ عَلَی مَتَطَلِبَاتِ الإِحْتِفَالِ بِلِیْلَةِ العَرَسِ کَانَ هُوَ الإِسْتَادَارَ ذَاتِهِ (١) . وَقَالَ السَّخَاوِی فِي تَرْجُمَةِ (أُمِّ الحُسَینِ بِنْتِ عَطِیَةِ المَکِیَّة): ثُمَّ تَزَوَّجَتْ شَخْصًا مِنْ مِیَاسِیرِ أَهْلِهَا، وَهُوَ مُحَمَّدُ بنِ عَلِیِّ بنِ الطَّحَانِ، فَاغْتَنَّتْ (٢) . وَاقْتَرَنَتْ (کَرَاى بِنْتِ عَلِیِّ بنِ النَّاصِرِ) بَعْدَ زَوْجِهَا الأَوَّلِ - بِالعَالَمِ الفَقیهِ العَلَمِ البَلْقِینِی، وَأُنْجِبَتْ مِنْهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ، فَصَارَتْ لَهَا وَجَاهَةٌ . فَلَعَلَّهَا حَقَّقَتْ هَذِهِ الوِجَاهَةَ، وَتَلَّكَ المَکَانَةَ الأَدِیْبِیَّةَ وَالإِجْتِمَاعِیَّةَ بِزَوْجِهَا مِنْ ذَلِكِ العَالَمِ الفَاضِلِ، رَغْمَ أَنَّهُا کَانَتْ بِنْتُ إِسْتَادَارٍ بَعْضِ الأَمْرَاءِ (٣) .

دوافع غیر تقلیدیة :

وَنَعْنِ بِهَا الأَسْبَابَ الخَارِجِیَّةَ غَیْرَ المَشْهُورَةِ الَّتِی تَدْفَعُ لِلزَّوْجِ، وَتَمَثَّلُ فِيهِ عَنَاصِرُ التَّأْثِیرِ، أَوْ الضَّغْطَ الخَارِجِیَّ دَوْرًا مَوْثِرًا فِي إِتْمَامِهِ . وَمِنْ أَمْثَلَةِ ذَلِكِ المُنَوَّعَةِ : تَزَوَّجَ الزَّیْنِی الإِسْتَادَارَ زَیْنَبَ بِنْتِ الكَمَالِ مُحَمَّدُ بنِ النَّاصِرِ ؛ تَشْبِهًُا بِالجَمَالِی نَاطِرِ الخَاصِّ فِي کَوْنِهِ زَوْجَ أُخْتِهَا (٤) . وَیُشْبِهُهُ مَا سَبَقَ تَزَوَّجَ أُخَى نَوْرِ الدِّینِ الجَرِیْشِی سَعَادَاتِ بِنْتِ المَحَبِّ مُحَمَّدُ بنِ مُحَمَّدِ القَیَاةِی ؛ لِأَنَّ نَوْرَ الدِّینِ نَفْسُهُ کَانَ مَتَزَوَّجًا بِأُخْتِهَا (٥) . وَلَعَلَّ الصَّلَةَ الوَثِیقَةَ، وَالعِلَاقَةَ الطَّیْبَةَ الوَطِیْدَةَ بَیْنَ الصَّاحِبِیْنَ فِي المِثَالِ الأَوَّلِ، وَالأَخْوِیْنَ فِي المِثَالِ الثَّانِیِ هِیَ الَّتِی دَفَعَتْ إِلَى اقْتِرَانِ کُلِّ بِأُخْتِ زَوْجَةِ الأَخْرِ، عِلاوَةَ عَلَی مَا عَرَفْنَا مِنْ خِلَالِ الأَسْرَتِیْنِ الطَّیْبَیَّةِ، وَسَمَاتِ بِنَاتِهِمَا مَا شَجَعَهُمَا لِمَوَاصِلَةِ الزَّوْجِ مِنْهُمَا . وَثَمَّةُ نَمُودَجِ ثَالِثٍ : فِيهِ حَثُّ (مَرِیمِ) بِنْتِ الخَلِیْفَةِ العَبَاسِیِّ المَتَوَكِّلِ عَلَی اللّهِ) أَخَاهَا عَلَی الزَّوْجِ مِنْ (أَلْفِ) بِنْتِ کَرَاى زَوْجِ العَلَمِ البَلْقِینِی) ؛ وَذَلِكِ لِلصَّلَةِ الوَثِیقَةِ بَیْنَ المَرَاتِیْنِ (کَرَاى، وَمَرِیمِ)، بِحِیْثِ إِنْهُ لَمَّا تَوَفَّیَتْ مَرِیمُ، طَلَّقَ أَخُوهَا بِنْتَ العَلَمِ البَلْقِینِی (٦) .

(١) الضوء اللامع ٩٣/١٢ (رقم ٥٨٥) . الإستاذار : هو الذى يتولى قبض مال السلطان أو الأمير، وصرّفه، وتمثّل أوامره فيه (وهو لفظ فارسی مرکب) . (صبح الأعشى ٤٥٧/٥) .

(٢) الضوء اللامع ١٤١/١٢ (رقم ٨٦٧) . (٣) المصدر السابق ١١٧/١٢-١١٨ (رقم ٧١٤) .

(٤) السابق ٤٩/١٢ (رقم ٢٩١) . (٥) السابق ٦٣/١٢ (رقم ٣٨٠) .

(٦) السابق ١٢٥/١٢ (رقم ٧٦٥)

وقد يضطر الإنسان لإتمام زواجه ما رغم أنه ؛ لوجود ضغوط خارجية عليه، يضطر للرضوخ لها، كما حدث مع (مغل بنت محمد بن محمد بن عثمان)، تلك التي تزوجها محمود بن الشهاب، ثم مات قبل الدخول بها، فأمر السلطان المؤيد شيخ بتزويجها للعلم داود بن الكويز رغم أنه والدها القاضي ناصر الدين بن البارزى (١) . ولا ندرى سر إصرار السلطان على ذلك، لكن الذى يعيننا أن السلطان أصدر أوامره، فلا مناص من التسليم ! وثمة شاهد أخير فيه تزوج أحدهم فاطمة بنت أبى الخير لما ركبت البحر إلى مكة ؛ لوجود شبيهه عكام (٢) معها، فكأنه لقصد المخالطة، وعدم إمكان التحرز (٣) رأى ضرورة الزواج منها ؛ وذلك رفعا للحرص والمشقة، وتنزها عن القيل والقال .

ج-متوسط سن المرأة عند الزواج، ومدته استمراره :

نحاول - فى هذه الجزئية - وضع أيدينا على متوسط عمر المرأة عند العقد عليها، أو البناء بها لأول مرة ؛ كى نرى - فى ضوء ما لدينا من مادة - الحد الأدنى والحد الأقصى لسن الزواج . وكذلك نتبع متوسط فترات الزواج الزمنية، والسر وراء قصر معظمها، وطول النادر منها خلال فترة البحث .

سن الزواج :

لعل سن الثامنة هى أصغر سن لدينا لعقد زواج البنات، حيث هى سن زينب بنت الظاهر برقوق، حين عقد عليها الأمير سودون الحمزاوى، وذلك فى عهد أخيها السلطان فرج بن برقوق سنة ٨٠٥هـ (٤) . ويلاحظ أن ابن حجر

(١) الضوء اللامع ١٢٦/١٢ (رقم ٧٧٦) .

(٢) عَكَمٌ يَعْكُمُ عَكْمًا : سَمَنَ . عَكَمَ المتاع : شده بالعكام . والعكام : ما يُشدُّ به من حبل، أو خيط، أو ثوب . والجمع : عَكْمٌ . (القاموس المحيط للفيروزآبادى، ط. الهيئة المصرية للكتاب)، باب الميم، فصل العين ج٤ ص ١٥٠-١٥١، والمعجم الوسيط ٢/٦٤٢) .

(٣) الضوء اللامع ٩١/١٢ (رقم ٥٦٧) .

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى (م. دار الكتب المصرية ١٩٧١م) ج٣ ق٣ ص ١١٠٠، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (ط. دار الكتب العلمية) ج١٢ ص ٢٣١ .

أورد في أحداث السنة نفسها خبراً، مفاده : أن المذكورين تزوجا، وكان عمر العروس - يومئذ - نحو عشر سنين^(١). وغالب الظن أن كلا الخبرين يكمل الآخر، مع تعديل سنة الزواج الفعلي، فتكون ٨٠٧هـ، لا سنة ٨٠٥هـ على نحو ما توهم ابن حجر . وهذا هو المنطقي - في ذلك الزمن - فسن العاشرة أنسب للبناء بالزوجة من سن الثامنة . ومما يقوى ذلك رواية ذكرها ابن تغرى بردى تقول : إن ستيتة بنت الناصر فرج تزوجت بكتُمُر في حياة والدها، وسنها دون عشر سنين^(٢) . على أن هذا لا يمنع - أحياناً نادرة - من هبوط سن الزواج عن التاسعة قليلاً، كما هو الحال مع ابنة للمؤيد شيخ، وكان قد زوجها في هذه السن المبكرة طوغان الحسنى الدوادار ؛^(٣) لمصلحة رآها^(٤) .

لدينا مجموعة من النصوص تبين أن ما سبق لم يكن الأصل في سن زواج المرأة، بل لعله هو الاستثناء . فهناك من زُوِّجت في سن الثانية عشرة، واستهجن ذلك ودُهِش منه أحد كبار الأمراء ؛ مستصغراً تلك السن^(٥) . وهناك من تزوجن في الخامسة عشرة^(٦)، والسادسة عشرة^(٧)، والثامنة عشرة^(٨)،

(١) إنباء الغمر ٢/٢٣٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٣/٢٨٤ (وفيات سنة ٨١٩هـ) .

(٣) السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ الحمودي، لبدر الدين العيني (ط. الهيئة العامة لقصور الثقافة، بتحقيق : فهم محمد شلتوت ٢٠٠٣م) . ص ٣١٥، والضوء اللامع ١٢/١٦٣ (رقم ١٠٢٢) .

(٤) السيف المهند للعيني ص ٣١٥ .

(٥) وذلك في القضية التي أشرنا إليها من قبل في موضوع (ظروف إتمام الزواج)، حيث استقل يشبك الدوادار سن فتاة بلغت الثانية عشرة، وقال للقاضي : كيف تزوج هذه !؟ فرد عليه الصيرفي بأن مذهبه يجيز هذا ؛ لأن السيدة عائشة تزوجها الرسول وهي بنت تسع سنين . فرد الأمير مستنكراً : تُشَبَّه هذه بهذه ؟ فيبين القاضي أن هذا تشريع من الرسول للأمة . (إنباء الهصر للصيرفي ص ٢٢٧-٢٢٨) .

(٦) مثل : رابعة بنت الإمام ابن حجر، التي ولدت سنة ٨١١هـ، وتزوجت بكراً شهاب الدين أحمد بن محمد بن مكنون وهي بنت خمس عشرة سنة (٨٢٦هـ)، ومات عنها زوجها (٨٢٩هـ)، وتوفيت (٨٣٢هـ) . (إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٧٤، ٤٢٥، والضوء اللامع ١٢/٣٤ رقم ١٩٩) .

(٧) مثل : زينب بنت محمد بن أبي البركات التي ولدت سنة ٨٤٢هـ، وتزوجها ابن عمها سنة ٨٥٨هـ . (المصدر السابق ١٢/٤٨ رقم ٢٨٩) .

(٨) مثل : زينب بنت علي بن أبي البركات التي ولدت سنة ٨٣٢هـ، وتزوجها ابن عمها سنة ٨٥٠هـ . (السابق ١٢/٤٤ رقم ٢٦٠) .

والعشرين^(١)، والخامسة والعشرين^(٢)، بل هناك من كبرت سنهما - بمقياس عصرها - وتأخر زواجها إلى الواحدة والثلاثين^(٣).

مدة استمرار الزواج : وتقصد بها الفترة الممتدة من البناء حتى الطلاق أو وفاة أحد الزوجين، ونخص بذلك الزواج الأول؛ لأن الزيجات التالية تدخل في باب (التعدد)، وسنعرض له فيما بعد، إن شاء الله . ومن خلال الروايات التاريخية يتبين لنا تفاوت فترات الزواج الأول للمرأة تفاوتاً كبيراً حسب ظروف وملابسات كل زيجة على حدة، وعدم تحديد في بعضها الآخر . فمثلاً: هناك من تزوجت وقتاً^(٤)، وأخرى تزوجها زوجها دهرًا^(٥)، وثالثة دام زواجها ثلاثة شهور فحسب^(٦)، ورابعة دام سنتين^(٧) . وفي الوقت نفسه هناك فترات زوجية مضيئة استمرت لسنوات على تفاوت بينها، مثل : الزواج مدة أربع سنوات^(٨)، وخمس سنوات^(٩)، وأكثر من عشر سنوات^(١٠)، وخمس عشرة سنة^(١١)،

-
- (١) مثل : سعادة بنت محمد بن عبد الرحمن الفاسية، التي ولدت سنة ٨٢٠هـ، وتزوجت سنة ٨٤٠هـ . (الضوء اللامع ١٢/٦٤ رقم ٣٨٩) .
- (٢) مثل : عائشة بنت القاضي أبي البقاء المكية، إذ ولدت سنة ٨٤٢هـ، وتزوجت سنة ٨٦٧هـ . (المصدر السابق ١٢/٨٠ رقم ٤٩١) .
- (٣) مثل : ست الجميع بنت علي بن أحمد القرشية، إذ ولدت سنة ٨٣٥هـ، وتزوجها عبد القادر بن الفاسي قاضي الحنابلة سنة ٨٦٦هـ . (السابق ١٢/٥٤ رقم ٣٢٢) .
- (٤) مثل : أم الخير سعيدة بنت محمد المكية (السابق ١٢/١٤٥ رقم ٩٠١) .
- (٥) مثل : فاطمة بنت محمد بن إبراهيم القاهرية . (السابق ١٢/٩٩ رقم ٦٢٤) .
- (٦) مثل : ابنة للمؤيد شيخ، حيث تزوجت ثلاثة أشهر، ثم ماتت سنة ٨١٦هـ . (السيف المهند للعيني ص ٣١٥، والضوء اللامع ١٢/١٦٣ رقم ١٠٢٢) .
- (٧) كما هو الحال مع بنت السلطان الناصر فرج، حيث زُفَّت إلى بكتمر بن عبد الله الظاهري سنة ٨١٣هـ، وتوفى سنة ٨١٥هـ . (المنهل الصافي لابن تغرى بردى ج٣ ص ٤٠٦-٤٠٧) .
- (٨) مثل : أم الحسين بنت أبي الخير محمد بن أبي البركات، حيث تزوجت سنة ٨٥٧هـ، ثم طُلِّقت سنة ٨٦١هـ . (الضوء اللامع ١٢/١٣٨ رقم ٨٤٨) .
- (٩) مثل : عائشة بنت القاضي أبي البقاء محمد بن أحمد المكية . تزوجت في مكة سنة ٨٦٧هـ، وطلقت سنة ٨٧٢هـ . (المصدر السابق ١٢/٨٠ رقم ٤٩١) .
- (١٠) مثل : سعادة بنت أبي السرور محمد بن عبد الرحمن، حيث تزوجت سنة ٨٤٠هـ، وفارقها زوجها بعد سنة ٨٥٠هـ بيسير . (السابق ١٢/٦٤ رقم ٣٨٩) .
- (١١) مثل : فاطمة بنت عمر بن أبي راجح، إذ تزوجت سنة ٨٦٧هـ، وتوفيت سنة ٨٨٢هـ بمكة . (السابق ١٢/٩٧-٩٨ رقم ٦١٦) .

وأكثر من عشرين سنة^(١)، وأربعين سنة^(٢). ومن الواضح أن عدم التوافق النفسى، وتنافر طباع بعض الأزواج، وعدم جدية الزواج كان يعجل بالطلاق، وأحياناً تكون الوفاة هى السبب الذى لا رادّ له فى إنهاء الزواج . وعلى الجانب الآخر تطول فترات زواج البعض للتوافق بين الزوجين، ووجود أولاد، وامتداد الأجل بهما معاً .

د-مدى تحقق التكافؤ بين طرفى الزواج :

التكافؤ بين أسرتى الزوجين أمر مهم، وأحياناً يؤدي انعدامه إلى فشل الحياة الزوجية . ومن هنا كان الحرص منذ قديم على تحقيقه . وقد يؤدي انعدامه إلى لجوء الطرف الأقدر لإخفاء الزواج عن معظم الناس، مكتفياً بحصر المعرفة به فى أضيق نطاق ممكن^(٣) . ومن هنا فلا غرو أن يتوقف بعض الآباء عند تزويج بناتهم ممن يتقدمون إليهم، إذا انعدمت الكفاءة^(٤) .

معلوم أن طبقة المماليك فى ذلك العصر كانت أرقى طبقات المجتمع ؛ فالسلطان نفسه والأمراء الكبار الذين يتولون أعلى المناصب فى دولة المماليك كانوا - فى الأصل - مماليك أرقاءً بعد اجتلابهم من بلادهم، وخضعوا لتنشئة عسكرية معينة^(٥)، وتم تحريرهم من الرق، وتدرجوا فى المناصب حتى منحوا

(١) مثل : ترجمة زينب بنت إبراهيم بن أحمد، التى تزوجت ابن عمها فى أردبيل، وأقامت بها أكثر من ٢٠ سنة، ثم رجعت إلى مكة، وتزوجت بغيره . (الضوء اللامع ١٢/٣٨-٣٩ رقم ٢٢٦) .
فلعل ابن عمها هذا طلقها، أو توفى، فاتجهت للزواج من غيره .

(٢) مثل : فاطمة بنت على بن الشريف محمد الفاسية، التى تزوجت سنة ٧٨٧هـ، وتوفيت سنة ٨٢٧هـ . (المصدر السابق ٩٧/١٢ رقم ٦٠٦) .

(٣) هناك مثال نادر لهذا الزواج السرى وقع فى سرداب بعيد عن أنظار الناس (خاصتهم، وعامتهم)، حيث عقد السلطان الحسن بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٨-٧٥٢هـ، ٧٥٥-٧٦٢هـ) على امرأة أحبته وهو لا يصلح لها، وذلك فى وجود شاهدى عدل، وحضور الأمير مقبل الشامى (ت ٨٠٢هـ)، ففضى السلطان وطره بعيداً عن الحرام . (المقضى للمقرىزى، ط. دار الغرب الإسلامى) ج ٤٤-٤٥ . والحق أن صحة هذا العقد محل نظر ؛ لأنه يفتقد الإشهار (الإعلان)، وموافقة الولى .

(٤) راجع تردد القاضى نور الدين بن الكبير عند تقدم أبى البركات الشيشينى للزواج من ابنته (الضوء اللامع ٧/١١ رقم ١٦) .

(٥) الخطط للمقرىزى ج ٢ ص ٢١٣-٢١٤، والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (ط. دار النهضة العربية بالقاهرة) ص ٢٢-٢٣، ودراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى (عصر سلاطين المماليك) للدكتور قاسم عبد قاسم (ط ٢-دار المعارف ١٩٨٣م) ص ٢١-٢٢ .

الإمارة، وبعضهم وصل إلى قمة السلطة في البلاد، وجلسوا على عرش السلطنة . ومن هنا كان اقتران بعض السلاطين بالجواري بعد عتقهم أمراً شائعاً مستساغاً آنذاك (١) . وكذلك اقتران المماليك عموماً بالنساء المصريات القاهريات على وجه الخصوص عُرف ابتداء من سنة ٧٩١هـ (في عهد الظاهر برقوق)، حين سُمح للمماليك بالنزول من القلعة، ورُخص لهم في سكنى القاهرة، ونكاح نساءها . واستمر ذلك وتصاعد مع ضعف الاهتمام بالمماليك في عصر الجراكسة (٢) .

تشير العديد من التراجم إلى تحقق التكافؤ في الزواج عند اقتران أبناء وبنات الطبقة العليا الحاكمة من بعضهم البعض ؛ فقد تزوج الظاهر برقوق من (حاج ملك)، وبعد وفاته تزوجت الأمير تغرى بردى والد المؤرخ يوسف (٣)، وتزوج السلطان المؤيد شيخ زينب بنت الظاهر برقوق، وبعد وفاته تزوجت بقجق العيساوى أمير سلاح (٤) .

لدينا نماذج عديدة للزواج المتكافئ في محيط الطبقات الاجتماعية الأخرى، كما هو الحال - مثلاً - في زواج (ألف بنت على بن محمد بن القاضي عبد الرحمن البلقيني) من الشريف السراج عبد اللطيف قاضى الخنابلة بمكة (٥)، وكذلك تزوج فرح من المعلم عبد الرزاق بن عبد العظيم الطحان (٦) . وثمة أمر آخر شاع بين طبقة العامة في مصر في القرن التاسع الهجرى، نلمسه - بوضوح - كظاهرة لافتة للنظر، ويتمثل ذلك في كثرة زواج الأقارب جنباً إلى

(١) ذكر ابن حجر أن السلطان برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) حجت زوجته جليان الجركسية في سنة ٨٣٤هـ، وجهازها تجهيزاً عظيماً . وكانت أمته، فأعتقها، وتزوجها، وصيرها أكبر الخوّنات (السيدات من حريم السلطان) . (إنباء النمر) ج٣ ص٤٦، ج٤ ص٢٧ (وفيات سنة ٨٣٩هـ)، والضوء اللامع ١٧/١٢ رقم (٨٩) . وراجع - أيضاً - مزيداً من النماذج في (المصدر السابق) ٣٣/١٢ (رقم ١٩٦)، ٤٠ (رقم ٢٣٤) وغيرها، والمرأة في مصر المملوكية للدكتور أحمد عبد الرازق (مكتبة سعيد رأفت بالقاهرة) ص٦٦-٦٧ .

(٢) الخطط ٢/٢١٤ .
(٣) الضوء اللامع ١٩/١٢ (رقم ١٠١) .
(٤) المصدر السابق ١٢/٤٠ (رقم ٢٣٤) .
(٥) السابق ٨/١٢ (رقم ٤٢) .
(٦) السابق ١٢/١١٥ (رقم ٦٩٥) .

جنب مع زواج الأبعد، خاصة عند تعدد مرات زواج المرأة^(١)، إلى جانب الاقتران أحياناً بأقارب الزوج أو الزوجة خاصة بعد الوفاة^(٢). ويغلب على الظن أن هذا النوع من الزواج يحقق مبدأ التكافؤ غالباً؛ لما بين الأقارب - في كثير من الأحيان - من توافق في الأخلاق، والطباع، والعادات، وتقارب في المنزلة الاجتماعية، والمستوى المادى، وإن كان ذلك لا يمنع - بطبيعة الحال - من وقوع خلافات قد تؤدي إلى الطلاق.

وأخيراً، فإن هناك حالات من الزواج غير المتكافئ^(٣) بغض النظر عن استمراره أو إخفاقه؛ لأن المرأة قد تضطر للاقتران بمن هو دون المنزلة^(٤)؛ لحاجتها إلى وجود زوج مهما تضاءلت مكانته. وتجدر الإشارة إلى أن لانعدام

(١) من نماذج ذلك: الزواج من ابن العم بعد موت الزوج الأول (الضوء اللامع ٨/١٢ رقم ٤١)، والزواج من ابن عمتهما (السابق ١١٩/١٢ رقم ٧٢٣)، والزواج من ابن خالتها، ثم طلقها، فنزوجت ابن عمها (السابق ١٢٨/١٢ رقم ٧٨٤)، والزواج من ابن عمها، ثم الطلاق منه، ثم الزواج من ابن عمها الآخر (السابق ١٣٨/١٢ رقم ٨٤٨)، والزواج من ابن عم أبيها (السابق ١٢٠/١٢ رقم ٧٣٢، ١٤٩ رقم ٩٢٥).

(٢) من نماذج ذلك: زواج إحداهن من ابن عمها، فقربها، ثم أخى زوجها الأول (السابق ٣٠/١٢ رقم ١٧٤)، والزواج من ابن أخت زوجها الأول (السابق ٣٨/١٢ رقم ٢٢١). والزواج من الأختين لأب - وهما ابتنا خالة في الوقت نفسه - واحدة بعد الأخرى (السابق ٤٩/١٢ رقم ٢٩١)، وتزوج الأخ امرأة أخيه بعد موته (السابق ١٢٠/١٢ رقم ٧٣١).

(٣) كما في زواج فاطمة بنت محمد الصالحى من القاضى أبى الفضل بن أبى المكارم بن ظهيرة، ثم من محمد ابن حسان الدلال. (السابق ١٠٦/١٢ رقم ٦٧٣). وكذلك زواج فاطمة بنت الكمالى محمد بن الناصرى بعد وفاة زوجها ناظر الخاص من مملوكه يشبك الجمالى (السابق ١٠٥/١٢ رقم ٦٦٣). وأيضاً زواج بنت السلوى من خادم زوجها تقي الدين بن المنجا. وقد أصبح ذلك الخادم وهو (عبد الصادق بن محمد الحنبلى الدمشقى) قاضياً لطرابلس، وشكرت سيرته، وسعى فى قضاء دمشق بعد الزواج منها (ت ٨٠٦هـ). (إنباء الغمر ج٢ ص ٢٨٠). ويلاحظ على المثاليين الأخيرين أن حاضِر الزوج الجديد يختلف عن ماضيه، فماضيه متواضع لا يرقى لمستوى الزوج الأول للمرأة، لكن أولهما تقدمت به الحال حتى ولى إمرة الحج، وولاية الحسبة، فحمدت سيرته، وعقله، وعبادته، وصلاحه، وصار ذا مكانة فى الدولة، (الضوء اللامع ٢٧٦/٣) فلعل ذلك دفع الزوجة لقبوله. وثانيهما صار قاضياً ناجحاً طامحاً، فاقترنت به زوجة سيده.

(٤) مثل: ألف بنت على بن محمد بن القاضى جلال الدين البلقينى، التى قدمت على أبيها بعد موت زوجها السراج عبد اللطيف قاضى الحنابلة. ويبدو أن حالها تدهور، فاضطرت إلى الزواج بمن لا وجاهة له، وظلت معه حتى ماتت. (المصدر السابق ٨/١٢ رقم ٤٢). وثمة مثال صارخ آخر ذكره السخاوى فى ترجمة (زهور بنت الولوى أحمد بن التقى)، التى تزوجت خمس مرات متتاليات، ثم ضعفت صحتها، ولم يعد للرجال كبير إقبال عليها، فاضطرت للزواج من بعض مهمل الأتراك بعد أن صارت عطلاً من الأزواج (السابق ٣٨/١٢ رقم ٢٢١).

التكافؤ في الزواج صوراً متعددة، منها : زواج المرأة بمن هو أسنّ منها بكثير، مثل : الزين أبى بكر بن الحسين المراعى الذى تزوج رقية بنت محمد بن التقي المدنية، وهو فى كِبَرِهِ، وإن أنجبت منه ذكرين^(١)، وكذلك عَقَدَ بنت السلطان الناصر فرج بن برقوق (سنة ٨١٢هـ) على بكتمر، وهو أسنّ من أبيها. وتولى الناصر العقد بنفسه، ولقنه إياه القاضى جلال الدين، وقَبَلَهُ للزوج تغرى بردى الأتابك^(٢). ولعل ذلك كان من قبيل الزواج السياسى، الذى يوثق فيه السلطان صلته بأحد كبار أمراء دولته^(٣). وقد زُفَّت ابنة السلطان إليه فى المحرم سنة ٨١٣هـ^(٤). وقد ينبع عدم التكافؤ من كبر سن المرأة - بصورة غير معتادة - عن زوجها، كأن تكون - فيما يقال - أسن منه بإحدى عشرة سنة^(٥)، وقد تكون أسن منه بيسير^(٦). وعلى كل، فالغالب أنها لم تكن ظاهرة واضحة آنذاك. وثمة نوع آخر من عدم التكافؤ، وهو الميل العاطفى الأحادى، وبه يشقى الطرف المحب أيما شقاء. ولدينا مثال فريد على ذلك، يتمثل فى (فاطمة بنت الملك الظاهر ططر)، التى تزوجت القاضى شرف الدين الأنصارى، وكانت مولعة بحبه، وأنفقت عليه أموالاً جمة فى المآكل والمشارب، بينما كان لا يبادلها حباً بحب، ثم طلقها؛ جحوداً من عند نفسه، حتى كادت تُجَنّ من فرط ميلها إليه، لدرجة أنها شكته إلى الأشرف إينال (٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م)، عندما تزوج بعد تطليقه إياها مُطَلَّقة السلطان الظاهر جَقَمَق (وهى زينب بنت الأمير جَرَبَاش)^(٧)، فغضب عليه السلطان إينال، ونفاه، وباع أملاكه، لكنها أُعيدت إليه بعدها فى دولة السلطان الظاهر خُشَقَدَم^(٨) (٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦١-١٤٦٧م).

(١) الضوء اللامع ٣٦/١٢ رقم (٢٠٩).

(٢) إنباء الغمر ج٢ ص ٤٣٠.

(٣) راجع ترجمة (بكتمر) فى : (المنهل الصافى) ج٣ ص ٤٠٣-٤٠٦.

(٤) المصدر السابق ٤٠٦/٣.

(٥) الضوء اللامع ٣٥/١٢ رقم (٢٠٥).

(٦) المصدر السابق ٨٦/١٢ رقم (٥٢٩).

(٧) راجع ترجمتها فى : (السابق ٤٠/١٢ رقم ٢٣٧).

(٨) إنباء الهصر ص ١٣٢-١٣٣.

هـ- من آثار الزواج (الأولاد) :

تتبع أهمية دراسة هذه القضية من كونها تلقي الضوء حول متوسط عدد أولاد الأسرة لتلك الشرائح الاجتماعية، التي ترجم لها السخاوى فى (الضوء اللامع)، إلى جانب إشارات المصادر التاريخية المعاصرة الأخرى . على أننا يجب أن نضع فى الحسبان أن المعلومات التي لدينا ليست استقرائية، ولكنها انتقائية، تذكر بعض الأولاد لا كلهم^(١)، إضافة إلى كثرة فقد الأطفال الصغار فى ذلك الزمان، خاصة فترات الأوبئة كالطاعون مثلاً^(٢) . والحديث عن الأولاد يجرننا حتماً للإشارة إلى القسمة الإلهية المنطقية بهذا الخصوص^(٣)، فبعض الأسر رزقها الله (تعالى) بنين وبنات معاً^(٤)، أو بنين فقط^(٥)، والبعض أنجب بنات فقط مع ما قد ينشأ عن هذا من خلاف لا أساس له^(٦)، والبعض الآخر لم ينجب على الإطلاق^(٧) . ومن استعراض الوارد عن الأولاد يتضح

- (١) الضوء اللامع ٣٠ / ١٢ (رقم ١٧٤)، ٣١ (رقم ١٨٠) .
- (٢) المصدر السابق ٣٢ / ١٢ (رقم ١٨٨) : وفى هذه الترجمة ذكر السخاوى أن (خديجة بنت الجمال يوسف بن عبد الكريم) مات أولادها . وأما بخصوص الطاعون، فذكر المقرئى استثناء مرض الطاعون فى مصر سنة ٨٣٣هـ، فموت المصاب به فى أقل من ساعة، وكان أكثر المصابين به الأطفال والشباب . (السلوك ج٤ ق٢ ص٨٢٤) .
- (٣) وفى ذلك يقول الله (تعالى) : ﴿لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءٌ وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ . أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءً وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ . (سورة الشورى : ٤٢ / الآيات ٤٩-٥٠) .
- (٤) الضوء اللامع ٥٢ / ١٢ (رقم ٣٠٩) : ولدت ذكراً، وأنثى . وفى (المصدر السابق) ٥٦ / ١٢ (رقم ٣٣٦) : ولدت ولدين، وبتين .
- (٥) مثل : زينب بنت الأمين يحيى بن محمد القاهرية، تلك التي مات زوجها شاباً، وترك ولداً . (الضوء اللامع ٥٠ / ١٢ رقم ٢٩٧)، وعتقاء بنت عبد الوهاب بن عبد الغنى التي تزوجها ابن عمها، ولها منه ابنها التاج عبد اللطيف (السابق ٨٥ / ١٢ رقم ٥١٩) .
- (٦) تزوجت زينب بنت ألقاضى الكمال محمد بن أحمد بن عبد العزيز وهي بكر المحب محمد بن أحمد الطبرى، ففارقها بعد أن ولدت له ابنة . (السابق ٤٦ / ١٢ رقم ٢٦٥) . وكذلك فى ترجمة (عابدة بنت على بن يوسف)، التي تزوجها الجمال محمد بن عيسى بن قريش، فولدت له زينب، ثم طلقها . (السابق ٧٢ / ١٢ رقم ٤٤٥) . وكذا أم كلثوم بنت عطية بن محمد المكية التي تزوجها بكراً أبو البركات بن أبي البقاء، فولدت له بنتاً بعد أخرى . (السابق ١٥٠ / ١٢ رقم ٩٣٤) .
- (٧) مثل : جنة بنت محمد بن الجلال البلقينى التي لم تلد لواحد ممن تزوجتهم رغم تعدد زواجها . (السابق ١٨-١٧ / ١٢ رقم ٩٠) . وكذلك خديجة بنت الشهاب أحمد بن النجم تزوجت مرتين، ولم تلد لأحد منهما، فطلقها (السابق ٢٥ / ١٢ رقم ١٤١) . أما أم الهدى بنت أحمد بن ظهيرة المكية، فتزوجت سنة ٧٩٨هـ، وظلت مع زوجها الجمال محمد بن على النويرى حتى ماتت سنة ٨٢٧هـ بمكة، ولم تلد (أى : مدة ٢٩ عاماً) . (السابق ١٦٠ / ١٢ رقم ٩٩٤) .

لنا تباين الأسر من حيث الحجم تبايناً كبيراً، فالمكثرون من الزواج والإنجاب يُخَلِّفون وراءهم عشرات الأولاد مع تحفظنا بالطبع على ما نعهده مبالغة من المصادر في رصد أعداد ذريات هؤلاء^(١). وقد يتضاءل العدد إلى أقل القليل في خلال فترات زمنية طويلة^(٢)، كما أنه قد يتأخر الإنجاب ويقل؛ نتيجة وجود فواصل زمنية معقولة قد تصل إلى ثلاث سنوات بين البناء والإنجاب لأول مرة، خاصة إذا أعقب ذلك وفاة مبكرة لأحد الزوجين^(٣).

ومن النقاط الجوهرية التي نحاول رصدها من خلال الحديث عن (الأولاد) في ذلك العصر ما يعرف بالترابط الأسري ومدى تحلّي الأسر آنئذ به. والحق أنه بعد التطواف الطويل في جنبات المادة التاريخية المتصلة بهذا الشأن، ثبت لنا أن العلاقات داخل هذه الأسر كانت صحية جيدة إلى حد كبير، سواء فيما

(١) أحيانا: تأتي روايات معقولة يمكن قبولها في مجال الإنجاب، كأن يقال: ولدت له عشرة أولاد (الضوء اللامع ٥٦/١٢ رقم ٣٣٧). وكذلك ما جاء في ترجمة أخرى: ولدت له خمسة أولاد. (السابق ١١٣/١٢ رقم ٦٨٠). أما المبالغة غير المقبولة، فهي ما وردت في ترجمة (بركوت بن عبدالله المكنيني ت ٨٣٠هـ) من أنه كان كثير التزويج (لعل الصواب: التزوج)، ومات وله في حياته أكثر من خمسين ولداً. (إنباء الغمر) ج ٣ ص ٣٨٨. أما إذا كان المقصود (التزويج) بمعنى أنه كان يزوّج أولاده في حياته، فيكون المجموع للأحفاد أيضاً، فيكون رقماً مقبولاً، شريطة أن يكون أولاده كثيرى الإنجاب أيضاً.

(٢) هناك تراجم عديدة تشير إلى اقتصار البعض على ولد واحد، أو بنت واحدة. (راجع الضوء اللامع ٢٧/١٢ رقم ١٥٠-١٥١، ص ٢٩ رقم ١٦٦). وقد يرزق البعض بذكر، وأنثى فقط (السابق ٥٨-٥٧/١٢ رقم ٣٤٢، ٦٤ رقم ٣٨٩). وقد يرزق الله البعض ببيتين اثنتين فقط (السابق ١٠٢-١٠٣ رقم ٦٤٦).

(٣) ورد في ترجمة (ستيتة بنت الأتابك أوبك) أنها تزوجت الأمير قنصوة، وكان الدخول بها، والاحتفال بليلة العرس سنة ٨٩٢هـ، وقد وضعت ولداً ذكراً أواخر سنة ٨٩٥هـ، ولم يلبث أن مات المولود، ثم هي في طاعون سنة ٨٩٧هـ. (السابق ٥٩/١٢ رقم ٣٥١). وهذا يعني: أنها أنجبت بعد ثلاث سنوات من الزواج، ولم تنجب بعدها حتى بلغ طفلها عامين، لكن سرعان ما توفيت هي وولدها، كما مر بنا. وفي حالة (رابعة بنت الإمام ابن حجر) نجدها تزوجت سنة ٨٢٦هـ، ودام زواجها من (أحمد بن محمد بن مكنون) ثلاث سنوات فقط إلى أن توفي في سنة ٨٢٩هـ، أنجبت خلالها بنتاً واحدة فقط، ثم تزوجت بآخر هو الشيخ محب الدين بن الأشقر مدة ثلاثة أعوام أخرى، لم تشر المصادر إلى إنجابها منه، لكنها توفيت بعد ذلك سنة ٨٣٢هـ. (إنباء الغمر ج ٣ ص ٣٧٣-٣٧٤، والضوء اللامع ٣٤/١٢ رقم ١٩٩).

يتصل بصلات الأم بأبنائها^(١) وبناتها^(٢)، أم صلات الأزواج بزوجاتهم^(٣)، والآباء بأبنائهم^(٤)، والبنات بوالدهن^(٥)، وكذلك كانت العلاقات جيدة بين الإخوة داخل الأسرة الواحدة بنين وبنات^(٦). وعلى الجملة، فإن المرأة - على

(١) للأم صلات طيبة بأبنائها فيما بين أيدينا من مادة فى القرن التاسع الهجرى . فمثلاً : هى حريصة كل الحرص على تقديم النصح والإرشاد لهم، فيذكر الصيرفى أن الأمير ابن مزهر الأتصارى تقم من القاضى الشافعى؛ لجلوس أحد الأشراف على بابه، وأمره بمنعه مراراً، إلا أن هذا الشريف أخذ يتقرب من القاضى، حتى قرّبه منه وأدناه، فحدّرت أم القاضى ابنها منه، واستجاب ابنها لها، وأمر هذا الرجل بتقوى الله، ورعاية حقوقه، وتنفيذ ما يوصيه به من المعروف، لكنه لم يمتثل لذلك، وتكبر وتجبّر، وحاول الإيقاع بين القاضى وغلّمانه. (إنباء الهصر ص ٤٠٩). وكذلك مهتمة بأمرهم، ساعية فى خيرهم؛ فها هى خديجة خاتون زوج ابن دلغادر أمير التركمان تقدم إلى السلطان برسباى عارضة عليه مفاتيح قيصرية، ومقدمة إليه الهدايا؛ من أجل الإفراج عن ولدها فياض، فما كان منه إلا أن استجاب لها سنة ٨٣٨هـ. (النجوم الزاهرة ١٤/٢٤٦).

(٢) ثمة مادة تاريخية، تفيد اهتمام الأم بابنتها، ورعاية شئونها . فها هى (زينب بنت القاضى الكمال أبى الفضل محمد بن أحمد النويرى المكي) ترعى أمها مصالحتها (وهى أم الحسين بنت القاضى شهاب الدين الطبرى)، فتهتم بجهازها جدّاً عند زواجها (الضوء اللامع ١٢/٤٦ رقم ٢٦٥). وها هى خوند مغل زوج السلطان الظاهر جقمق، التى طلقها بتهمة دس السم لإحدى حظاياها، فانتقلت للإقامة مع ابنتها وزوجها الأمير أربك، ورعت شئون بيت ابنتها وزوجها، وقامت على تربية ابن ابنتها بعد وفاة أمه، وظلت تقوم بواجبها خير قيام حتى وفاتها سنة ٨٧٦هـ. (إنباء الهصر ص ٤٢٦، ٤٦٤-٤٦٥، والضوء اللامع ١٢/١٢٦ رقم ٧٧٦).

(٣) توجد جوانب مضيئة فى العلاقة بين الزوجين؛ فالزوجة تهدى زوجها مملوكها، كما فعلت مغل بنت البارزى مع زوجها الظاهر جقمق. (المهمل الصافى ٤/١٠١)، والزوج عظيم الحب لزوجته رغم مزيد تكاليفها إياه. (راجع ترجمة زوجة عبد الرزاق الناسخ التى تعرف بـ "جَلّ الله" فى الضوء اللامع ١٢/١٦٧ رقم ١٠٦٥). وأحب زوج امرأته، ووثق بهما، فأسند تنفيذ وصيته بعد موته إليهما، وأقام عليهما ناظرًا سَمَاه فى وصيته. (السلوك ج٤ ق٣ ص١٢٠٣).

(٤) عاطفة الأب نحو ابنه عاطفة جياشة تمثل لها بموقف السلطان مؤيد شيخ عند استقباله ابنه عائداً من حلب، حيث بكى السلطان من فرحه بسلامته، وبكى الناس لبكائه. (النجوم الزاهرة ١٣/٢٣٧، أحداث سنة ٨٢٢هـ).

(٥) من المظاهر الطيبة فى علاقة البنت بأبيها ما قامت به فاطمة بنت تغرى بردى زوجة الملك الناصر فرج بن برقوق بإيعاز من السلطان نحو أبيها المريض، حيث كان السلطان يعتمد عليه اعتماداً كبيراً فى تسيير شئون دولته؛ لذا كان يظهر التأسف على مرضه، ولم يصحب امرأته معه إلى الشام فى إحدى حملاته، أمراً إياها أن تظل مع والدها تعود فى مرضه. (المصدر السابق ١٣/٨٦). وكذلك نلمس علاقات الحب والدفء بين الآباء وبناتهم فى علاقة الأمير جرباش بابنته زوجة السلطان جقمق (السابق ١٥/١٥٥)، واتناس السلطان جقمق نفسه بالجلوس إلى ابنته زوجة الأمير أربك، والتحدث معها، والإلام بيئتها قبيل وفاته (السابق ١٥/١٧٩، ١٩١).

(٦) يذكر ابن تغرى بردى: أن والده ترك عشرة أولاد (ستة ذكور، وأربع إناث غير أشقاء إلا يوسف=

العموم - كانت تتمتع بمكانة خاصة متميزة في هذا العصر داخل الأسرة، فتحظى بالاحترام والتقدير، والمشاعر الطيبة، والوفاء لها حتى بعد مماتها، وذلك من الأزواج^(١)، والأولاد^(٢). وكانت الفضليات الصالحات الخيرات منهن يحظين بالمدح والثناء والاحترام من قبل الأهل^(٣)، وعامة الناس^(٤) في الحياة وبعد الممات .

(٢) الطلاق، والوفاء :

لعل الطلاق ووفاء أحد الزوجين من أكبر المشكلات الطارئة على الزواج حيث تقطع استمرار الحياة الزوجية وتترتب عليها تداعيات، ونتائج سلبية على الأسرة بعامة، والأولاد بخاصة . ونحاول في هذه الجزئية تتبع أسباب وقوع

= وأخته هاجر) . (المنهل الصافي ٤١/٤-٤٢) . وكانت العلاقة طيبة بين عدد من هؤلاء الإخوة والأخوات، فيوسف الأصغر هذا - بعد وفاة والده سنة ٨١٥هـ - ربي في بيت أخته بيرم عند زوجها الناصري ابن العديم الحنفي، ثم عند زوجها التالي الجلال البلقيني . (الضوء اللامع ٣٠٥/١٠ رقم ١١٧٨) . واعتنى دمرداش الحمدي بأولاد أخيه المتوفى، حيث تزوج بزوجة أخيه (أم تغرى بردى بن عبد الله المعروف بسيدى الصغير) . (المنهل الصافي ٤٦/٤) .

(١) حظيت الزوجة بمكانة جلية عند عدد غير قليل من الأزواج، أولئك الذين أبدوا تجاهها أسماً معانى الوفاء بعد الوفاة . فها هو زوج يتأسف لموت زوجته كثيراً (الضوء اللامع ٦١/١٢ رقم ٣٦٤)، وآخر يحزن عليها حزناً شديداً، ويرفض الزواج، أو الترسى بعدها (المصدر السابق ٨٥/١٢ رقم ٥١٨)، وثالث يرثيها بعد وفاتها (السابق ١٤١/١٢ رقم ٨٧١) .

(٢) تعمر النصوص التاريخية بما يدل على مكانة الأم عند أولادها ؛ فها هو أحمد بن محمد بن أحمد بن علي الدميري المالكي ينتسب لأمه - اعتزازاً بها - ولا ينتسب لأبيه، وبخطه يكتب في الفتاوى، وغيرها : (أحمد ابن أخت بهرام) ؛ فأمه أخت القاضي تاج الدين بهرام . وسئل عن سر ذلك، فقال : كان أبي لا تُحمد شهادته . (إنشاء الغمر ٤/١٢١) . ومن الأبناء من حرص على إقامة أمه في ظلّه وبيته، تنتعم بعزه الذي يفوق الوصف، وبره الزائد عن الحد (الضوء اللامع ٢٦-٢٥/١٢ رقم ١٤٤) . وبعد رحيلها يكون الثناء على صلاحها وبرها وتقواها (المصدر السابق ٤/١٢ رقم ٢٠)، والنزول إلى قبرها وقيام ابنها بإلحادها بنفسه (السابق ٦٨/١٢ رقم ٤١٣) .

(٣) وللأهل مزيد اعتزاز بالمرأة الجليلة ذات الدين والتدبير والعقل، حتى إن أحدهم كان ينتسب إلى أخته في الحروب، ويقول : أنا أخو فاطمة (السابق ٩٠/١٢ رقم ٥٥٧)، وكان القاضي الحنبلي العز الكنانى لا يقوم لمن يدخل عليه بيته من النساء إلا قريته (نشوان بنت الجمال عبد الله ابن العلاء)، فكان ينهض لاستقبالها ؛ احتراماً، وتقديراً لها (السابق ١٢٩/١٢-١٣٠ رقم ٧٩٥) .

(٤) حظيت المرأة الجليلة الصالحة الخيرة بثناء ومحبة الناس عامة، فيكثر التأسف عليها عند فقدها، والتحدث بمآثرها وحميد خصالها (السابق ٧٨/١٢ رقم ٥٣٨، رقم ٩٠، رقم ٥٥٨، رقم ١٣٠ رقم ٧٩٥) .

الطلاق، وسبب أغوار الخلافات الأسرية المؤدية إليه، سواء كان ذلك نابغاً من الزوجين، أم بمطالبة وإلحاح من أحدهما، أم بتدخل وإكراه على إيقاعه من عناصر خارجية مؤثرة. ويترتب على الطلاق والوفاة ما يعرف بـ (التأيم)، فتمتتع المرأة - أحياناً - عن الزواج، وتكتفى بالقيام على شئون بيتها وأولادها، وكذا بعض الرجال. وقد يتزوج الرجل أو المرأة مرة أخرى، أو مرات متتالية، وتنشأ من ذلك حياة زوجية جديدة لكل منهم، ومزيد من الذرية. وسوف نتال منا قضية (تعدد الزوجات) عناية خاصة، لاسيما جمع بعض الرجال بين أكثر من زوجة فى وقت واحد. وإذا كان (التعدد) متاحاً للرجال، فهل كان لـ (العنوس) وجود فى القرن التاسع الهجرى؟ ذلك كله سنحاول توضيحه فى الصفحات الآتية.

الطلاق وخطورته :

إذا كان الزواج يحقق لكل من : الرجل والمرأة السكينة والطمأنينة^(١)، فإن الطلاق على الضد من ذلك. والعقلاء من الرجال يتورعون عن إطلاق لفظه؛ لمعرفتهم حرمة الحياة الزوجية وقدسيتها، وما يترتب على الطلاق من مآسٍ متعددة. ومن هنا فلا عجب أن يُحلف السلطان المؤيد شيخ ناظر الخاص بالطلاق من زوجته، وبكل يمين ألا يكتم عنه شيئاً عن الجند، وتجهيزهم للخروج معه إلى بلاد الشام^(٢). وكذلك لا غرو أن يشنق بعض العوام نفسه؛ كمداً وحسرة؛ لأنه تسرع وطلق زوجته التى يحبها، فتزوجت غيره^(٣).

أسباب الطلاق :

باستعراض المادة التاريخية المتناولة للمشكلات الزوجية، التى تفضى إلى

(١) وهو مصداق قوله (تعالى): " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون " . (سورة الروم : ٣٠/ الآية ٢١) .
(٢) إنباء الغمر ١٠١/٣ . وناظر الخاص هو الذى ينظر فى خاص أموال السلطان . (صبح الأعشى ٤٦٥/٥) .

(٣) إنباء الغمر ٢٧٣/٣ . وردت الرواية فى (بدائع الزهور، لابن إياس، ط ٢ - الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٤م) ج ٢ ص ٨٣ بشئ من الاختلاف والتفصيل، وفيها : أن الرجل طلق امرأته، ولها عليه حق، فتزوجت غيره، ووكلت زوجها الجديد بمقاضاة الزوج الأول . فلما ضاق به الأمر، شنق نفسه من شدة قهر زوجته له .

الطلاق، والظروف الخارجية التي تدفع إلى إيقاعه دفعًا في القرن التاسع الهجرى، تبين لنا مجموع الأسباب والظروف الآتية :

١- عدم التوافق : وقد عبّر عن ذلك بعبارة : (لم يرتض أمرها) (١)، فالطلاق هنا بمبادرة من الزوج . وقد يكون بطلب من الزوجة، فيقال : لم تحمد أمرها معه (٢) . والبعض من النساء تتعدد مرات زواجها وطلاقها، والنتيجة أنها لم تسعد في زيجاتها، ولم تُرزق حظًا (٣). وفي عبارة أخرى : ليست محظوظة من الأزواج (٤) . والحق أن هذا السبب العام يمنع الحياء المؤرخين من الخوض في تفاصيله؛ مما يفتح أمامنا باب الاحتمالات، فقد يكون عدم توافق نفسى، أو اختلافًا فى الطباع والعادات والتقاليد والأخلاق، والتفكير، وطبيعة النظرة إلى الأشياء؛ نتيجة اختلاف البيئات والقدرات الشخصية، وانعدام التكافؤ . وهذا يكون الأمر راجعًا إلى الضعف الجنىسى، أو النفور الجنىسى لدى المرأة . وهذا التصنيف الأخير مهم للغاية ؛ من أجل استقرار وسعادة وتوافق طرفى الزواج، ولعل المعاناة فى هذا الجانب هى التى تقف وراء قول بعض المؤرخين : فارقها ؛ لعدم الوفاق (٥). وقول بعض التراجم : فارقها بكراً (٦)، وكذلك ما تشير إليه بعض المصادر من أن إبراهيم بن المؤيد شيخ تزوج بنت الناصر فرج بن برقوق، التى كانت زوجة بكتمر . فلما دخل بها، وجدها بكراً، وعُمل له احتفال كبير (٧) . وربما تكون الزوجة المطلقة، وتقترن برجل آخر لكنها لا تحس الوفاق

(١) وردت فى موقف الأمير يشيك الفقيه من (آسية بنت المؤيد شيخ). (الضوء اللامع ١٢/٢ رقم ٢) .

(٢) أمة العزيز بنت عبد الرحمن بن سليمان القاهرى مع زوجها الشهاب أحمد بن ناصر الدين . (المصدر السابق ١٢/٩-١٠ رقم ٤٨) .

(٣) ترجمة (ست الخلفاء بنت المستنجد بالله) . (السابق ١٢/٥٤-٥٥ رقم ٣٢٤) .

(٤) ترجمة (أم الحسن بنت خليل بن أحمد القاهرى) . (السابق ١٢/١٣٦ رقم ٨٣٤) .

(٥) لم يحصل التثام بين فاطمة بنت البدر بن محمد الحنبلى، وزوجها سبط العز الحنبلى عز الدين محمد بن الشهاب الجوجرى ؛ ولذلك فارقها بعد بذل له، وإبراء . (السابق ١٢/١٠٤ رقم ٦٥٧) . وهذا يعنى : أنها كانت المطالبة بالطلاق .

(٦) ترجمة فاطمة بنت عبد الرحيم بن الناصرى التى مكثت زوجة لقريبها النجم يحيى بن حجى مدة، ثم فارقها وهى بكر . (السابق ١٢/٩٤ رقم ٥٨٩) .

(٧) إنباء الغمر ج٣ ص١٣ .

معه، فتطالب بالطلاق وتصر عليه ؛ لأنها افتقدت ما كانت تجده عند زوجها الأول، فتحنّ للتححرر من زوجها الثاني، لعل الأول يقوم بردها (١) .

٢-عدم الإنجاب : قد تكون المرأة صالحة خيرة، لكنها لا توفق في حياتها الزوجية، لشيء خارج عن إرادتها كعدم القدرة على الإنجاب، كما هو الحال مع (جنت بنت التاج محمد بن الجلال البلقيني)، التي تزوجت ثلاث مرات، ولم تلد لأى من أزواجها الثلاثة (٢) .

٣-إنجاب الإناث : وهو من علل الطلاق المشهورة آنذاك ؛ نتيجة لما شاع - على سبيل الخطأ والجهل - من أن المرأة مسئولة عن نوع الجنين ذكراً أو أنثى . وعلى كل حال، فقد تكررت فى بعض تراجم النساء حالات الطلاق مقترنة بوضع الزوجة أنثى لا ذكراً (٣) .

٤-الزواج بامرأة أخرى عليها : وهذا أمر شائع - أيضاً - بين النساء ؛ لأنهن لا يرضين بمشاركة غيرهن لهن فى أزواجهن ؛ ولذلك ما إن تعلم المرأة باقتران زوجها بغيرها حتى تطلب الطلاق للوهلة الأولى، وقد تتساهل شيئاً ما، فتطالبه بتطليق الزوجة الجديدة إن أراد الإبقاء عليها فى عصمته . وقبل أن أورد شاهداً تاريخياً على ما ذكرتُ، أبادر فأقول : إن بعض الرجال يحسم أمره منذ البداية، فيسارع بتطليق زوجته إن مال إلى غيرها (٤)، ويتوجه للزواج من المرأة الأخرى، التى غالباً ما تكون أكثر جمالاً ورونقاً، فتأخذ بلبه بعيداً عن زوجته الأولى (٥) . وبعض الرجال يسلك مسلكاً مختلفاً، فيتزوج خفية، كما هو الحال

(١) تزوج القاضى شرف الدين يحيى بن محمد المناوى ابنة شيخه (الكمال بن الهمام)، التى سبق لها الزواج وهى بكر من شهاب الدين حسين بن الخواج، وذلك فى حياة والدها . ثم كرهت المقام مع زوجها الثانى - بعد وفاة والدها - وتعمدت مضايقته ليفارقها، لكنه صبر عليها، وتودد إليها ؛ مراعاة لوالدها، إلى أن يش، فأعلمها أنه على استعداد لتجهيزها لزوجها الأول، إن كانت غير راغبة فيه، فما رضيت إلا بالطلاق، ففارقها، لكنها لم ينتظم لها حال بعده . (الذيل على رفع الإصر ص٤٦٠) .

(٢) الضوء اللامع ١٧/١٢-١٨ (رقم ٩٠) .

(٣) راجع (المصدر السابق ٤٦/١٢ رقم ٢٦٥، ص١٥٥ رقم ٩٧٠) .

(٤) السابق ١٢/١٤٠ رقم (٨٦١) .

(٥) السابق ١٢/١٠٠ رقم (٦٢٩) .

مع البدر أبى السعادات البلقيني، الذى تزوج سعادات بنت البدر محمد بن الزينى على هذا النحو، ثم فارقتها قبيل وفاته (١). ويبدو أنه أراد إخفاء الأمر عن زوجته الأولى، ثم أحس بقرب انكشاف أمره، أو انكشافه لها بالفعل، فأثر السلامة، وطلق المرأة الجديدة، وعاد إلى زوجته وبيته سيرته الأولى .
والآن مع النموذج الذى أشرنا إليه منذ قليل :

* تزوجت كمالية بنت الشريف عبد الرحمن بن أبى الخير المكي المحب أحمد بن الجمال بن ظهيرة بعد طلاقها من زوجها الأول، ثم طلقت من زوجها الثانى أيضاً؛ لعدم رضاها حين تزوج عليها أم الحسين بنت عبد الرحمن اليافعى . ثم حدث أن توفيت أم الحسين سريعاً، فقام برّد زوجته الأولى (كمالية)، ومكث معها عامين، ثم مات، ولحقت به بعد شهرين وثلاثة أيام سنة ٨٢٧هـ (٢).

٥- الطلاق للضرر : من أسباب وقوع الطلاق تعرض الزوجة للضرر المادى، أو المعنوى . فقد ورد فى ترجمة (شريفة بنت عبد اللطيف الحنبلى) أنها طلقت من السراج عمر بن عبد الله بن القاضى تقي الدين محمد بن أحمد الحرازى؛ لغيبته عنها (٣) . فكان هذا دليل إهماله إياها، وعدم قيامه بواجباته الشرعية نحوها، فحقّ لها المطالبة بفراقه . وكذلك طالبت سعادات بنت الشيخ نور الدين على بن أحمد البوشى زوجها البقاعى بالطلاق بعد أن نالها منه من الذل ما ليس فى الحسبان، وكذا أساء إلى طلبة أبيها الشيخ؛ لأنهم كانوا يحاولون مساعدتها، كما أساء إلى أخيها أيضاً . نتيجة كل تلك المعاناة سألته الطلاق رغم إنجابها منه (٤) . وثمة مثال آخر جديد، فيه تزوج محمد بن على ابن نجم الكيلانى (وكان والده من أعيان التجار) جارية من جوارى الناصر فرج ابن برقوق، فهام بها حباً، وأهمل تجارته لأجلها، فقابلت ذلك ببغضه، حتى قيل : إنها سقته السم، فمرض فترة من الوقت، ثم اضطر إلى طلاقها؛ مما أثر فى صحته العقلية . ويذكر ابن حجر أنه بلغه أنها تزوجت أحد العوام، فأحبته،

(٢) المصدر السابق ١١٩/١٢ رقم (٧٢٦) .

(٤) السابق ٦٢/١٢ (رقم ٣٧٧) .

(١) الضوء اللامع ٦٣/١٢ رقم (٣٧٩) .

(٣) السابق ٦٧/١٢ (رقم ٤٠٩) .

فلقيت منه الذل والهوان ؛ جزاءً وفاقاً . ثم إنها زارته في مرض موته ؛ طالبة الصفح، فسامحها من فرط تعلقه بها، رغم كل إساءاتها إليه، وإلزامها إياه - من قبل - بطلاق زوجته الأولى (ابنة عمه) من أجلها^(١). وأخيراً، نعرض لنموذج وقع فيه الطلاق ؛ مخافة الضرر (على سبيل التشاؤم)، حيث طلق العز عبد العزيز بن علي النويري عائشة بنت عبد الله بن ظهيرة؛ تَطَيُّراً؛ لأنها تزوجت قبله زوجين فماتا، فلم يلبث أن مات هو الآخر بعد تطليقه إياها!^(٢).

٦- الطلاق بَطْرًا بنعمتي : الغنى، والسلطان : بعض الرجال يعرف قدر النعمة، ويحمد الله عليها في السَّراء والضَّرَّاء، وبعضهم يجحد النعمة - رغم استيقان أنفسهم - ظلمًا وعلوًّا . ومن ذلك : ما ورد في ترجمة (سعادات بنت الشيخ نور الدين البوشى)، حيث تزوجها البقاعى بعد أن طلق زوجته الأولى (أخت الشمس السباطى)، التي قاسمته عيشه الضنك، وصبرت على الفقر والذل والحاجة معه، لكنه بمجرد إنعام الله عليه بالمال، سارع إلى مفارقتها، وأحل محلها زوجة أخرى^(٣). وعلى الجانب الآخر فقد فارق الظاهر جقمق زوجته (مغل بنت محمد بن محمد بن عثمان) بعد أن صار سلطاناً رغم أنها كانت تحظى بمكانة سامية عنده، فإذا به يُنحِّيها جانباً، وتهبط منزلتها تماماً في عقله وقلبه^(٤)، وينكر عيشاً قد تقادم عهده .

٧- الطلاق لحرمة الرضاع : وهذا سبب شرعى حتم لازم لا مناص منه، ولا دخل لأى من الزوجين فيه . ومن شواهد التاريخة : أن زينب بنت صالح ابن مظفر بن نصير البلقينى تزوجت ابن ابن عمها^(٥) شيخ الإسلام السراج عمر

(١) إنباء الغمر ج٣ ص ١٨٦ .

(٢) المصدر السابق ١٢/٦٢ (رقم ٣٧٧) . وقام البقاعى بالصنيع نفسه مع زوجة أخرى (السابق ١٠٥/١٢ (رقم ٦٦٤) .

(٤) السابق ١٢/١٢٦ (رقم ٧٧٦) .

(٥) وهى ابنة ابن عمه (الذيل على رفع الإصر) ص ١٥٧ . وورد فى (إنباء الغمر) لابن حجر ج٣ ص ٣٥٥ (وفيات سنة ٨٢٨هـ) : أن الزوجة اسمها صالحه، أو زينب بنت صالح بن رسلان بن نصير . وعلّق على ذلك السخاوى فى (الضوء اللامع) ١٢/٤١ رقم (٢٤١) قائلاً : تردد شيخنا، وما قدّمته هو التحقيق فى اسمها، ونسبها (رحمها الله) .

ابن رسلان بن نصير البلقيني، فأنجبا ولدين : صالحًا، وعبد الخالق . ثم قدمت على السراج أخته من (بلقينة) (١)، فذكرت له أنها أرضعت زوجته هذه، فبحث عن صحة ذلك، فتحقق صدقه، فاجتنب زوجته وفارقها (٢)، وذلك قبل وفاته بعشر سنوات (ت ٨٠٥هـ) (٣)، وخرجت الأم بابنها صالح، وسكننا عند ابن عم لها . فلما مات زوجها، تزوجت أحد العوام، وتوفيت عن نحو ستين عامًا (سنة ٨٢٨هـ)، بعد أن ولى ابنها صالح القضاء (٤) .

٨-الطلاق لضغوط خارجية :

قد يقع الطلاق ؛ نتيجة تحريض أهل الزوج، أو أهل الزوجة لسبب أو لآخر بالحق أو بالباطل، وتكون النتيجة خضوع الزوج أو الزوجة لأولئك

(١) ذكر الإدريسي في (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١-عالم الكتب بيروت ١٩٨٩م) ج١ ص٣٣٩-٣٤٠: أنها تعرف بـ (ترعة بلقينة)، وبينها وبين محلة أبي الهيثم في الضفة الغربية لخليج المحلة ١٥ ميلاً، وهي كثيرة البساتين والجنات، متصلة العمارات والغلات . وفي (معجم البلدان) ١/ ٥٨٠ : قرية من حوف مصر من كورة بنا، ويقال لها : البوب أيضاً . وعلق محمد رمزي قائلاً : هي قرية قديمة تقع بين محلة أبي الهيثم والمحلة الكبرى، وبنا (هي بنا أبوصير)، ولفظة ترعة زائدة ؛ لأنها قرية معروفة باسم (بلقينة) منذ قديم . (القاموس الجغرافي، ق ٢ ج٢ ص١٩) .

(٢) واضح من النص التاريخي أن التفرقة بين الزوجين تمت بسبب الرضاع . ولا يمكن التسليم بصدق الواقعة دون أن نساءل : لماذا تأخرت أخت الزوج في إخباره بأنها أرضعت زوجته حتى تزوجا وأنجبا ولدين؟! لعلها نسيت ذلك الأمر، ثم تذكرته فجأة عند زيارتها بيت أخيها . واعتقد أن النص به سقط ؛ إذ لا بد أن يتصّ فيه أن أخته أرضعت الزوج (أخاها) أيضاً ؛ حتى يصح ثبوت الحرمة، اللهم إلا إذا كان زوج أخته له زوجة أخرى هي التي أرضعت الزوج، فيكون كل من : الرجل، والمرأة اللذين فُرق بينهما، قد اجتمعا على لبن الفحل (رجل واحد)، فتثبت الحرمة كذلك . (راجع: نيل الأوطار للشوكاني، نشر : المكتبة التوفيقية) ج٦ ص٣١٨-٣١٩ (باب يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب)، ودراسات في أحكام الأسرة للدكتور محمد بلتاجي (نشرة مكتبة الشباب ١٩٨١م) ص١٠٨-١١١ (ومصادره)، وإن كان الاحتمال الأخير بعيداً ؛ لأنه لم يُذكر في الواقعة . وثمة احتمال أخير بعيد أن تكون لفظة (أخته) الواردة في النص محرفة عن لفظة (أمه)، فنكون لسنا بحاجة للنص على أنها أرضعت الزوج (ابنها)، فذلك مفهوم ضمناً .

(٣) راجع ترجمته مفصلة في: (الضوء اللامع) ٦/ ٨٥-٩٠ (رقم ٢٨٦)، وفيها ورد أنه ولد سنة ٧٢٤هـ (بلقينة) من الغربية . وإذا كان قد فارق زوجته قبل وفاته بعشر سنوات، فذلك يعني أنه فارقها سنة ٧٩٥هـ، وتكون زوجته قد امتد عمرها بعده ثلاثة وعشرين عامًا . وهذا يعني أن الزوجة أصغر من زوجها بأربعة وأربعين عامًا ؛ مما يجعل احتمال أن تكون أمه هي التي أرضعت زوجته بعيداً نادراً، وإن لم يكن مستحيلاً، بخلاف أن تكون أخته هي التي أرضعتها، فذلك موضع شك كبير، وهو أقرب إلى الرفض التام منه إلى القبول .

(٤) المصدر السابق ١٢/ ٤١ رقم ٢٤١، والذيل على رفع الإصر ص١٥٧ .

المعرضين الخاطئين غالباً، فيتم الفراق بين الزوجين . ومن أمثلة ذلك : فاطمة بنت طيبغا البدرى التى تزوجها الشريف الأكفانى، لكن يبدو أن أهله لم يكونوا راضين عن هذا الزواج، وقاموا عليه حتى فارقها^(١) .

وثمة مثال آخر : تزوجت قررة العين - وهى ابنة أبى بكر بن عبد الرحمن شقيق السخاوى - بابن لبدر الدين بن قاسم السكرى، ثم بذل كل من : أخيها وأمها كافة المحاولات الممكنة للضغط عليها - لسبب لا نعرفه - حتى فارقتة . ولم يرض السخاوى عن ذلك، وتأسف لحدوثه، فقال: "ولا قوة إلا بالله، والله يحسن العاقبة"^(٢) .

وأخيراً، قد يُفرض الطلاق فرضاً من قِبَل السلطان نفسه دون رضا الزوجين، كما حدث فى عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق، حيث كان حانقاً على الأمير نوروز الحافظى الخارج عليه، فجمع القضاة، وطلّق أخته سارة بنت الظاهر برقوق من زوجها نوروز الذى كان بالشام، وزوّجها للأمير مقبل الرومى - على كُرّه منها بعد أن هددها بالقتل - بعقد مُلَقّق من قضاة السلطة لا يعبأ الله به ؛ مما كان له أسوأ الأثر على الأمير نوروز، ولم يستحسنه أحد^(٣)، بل عمد نوروز إلى الانتقام من مقبل، فقتله بالمعركة الدائرة فى بلاد الشام بين جيش السلطان وأعدائه^(٤) .

الوفاة :

وهى من الظروف الطارئة على الزواج، وتؤثر فى مسيرته بلا شك، وتترتب عليها نتائج عديدة تؤثر فى أحد الزوجين، والأولاد . وقد اهتم السخاوى فى معجم النساء من كتابه : (الضوء اللامع) - من خلال التراجم - بذكر وفيات النساء، وحرص على بيان من ماتت منهن وهى فى عصمة زوج،

(١) الضوء اللامع ٩٢/١٢ (رقم ٥٧٣) .

(٢) المصدر السابق ١١٦/١٢ رقم (٧٠٤) .

(٣) السلوك ج٤ ق ١ ص ٢٠٧ (أحداث شهر المحرم سنة ٨١٥هـ)، والنجوم الزاهرة ٩١/١٣ (أحداث شهر ذى القعدة سنة ٨١٤هـ) .

(٤) إنباء الغمر ج٢ ص ٥٠٥-٥٠٦ (سنة ٨١٥هـ) .

وما إذا كان هذا الزوج هو الوحيد الذى اقترنت به ^(١)، أم هو آخر الأزواج الذين تزوجت بهن واحداً بعد الآخر ^(٢)، وقد يذكر مكانة وقيمة هذا الزوج ^(٣)، أو درجة قرابته إن كان لها قريباً ^(٤)، مع الإشارة إلى إرثه إياها إذا خلّفت ثروة ^(٥). وقد يذكر السخاوى - فى المقابل - وفاة الزوج إذا كان هو المتوفى أولاً، ويسجل لنا ما إذا كان قد ترك أولاداً ^(٦)، أم أنه ترك الزوجة وحيدة ^(٧)، ثم يرصد أحوال بعض الزوجات بعد رحيل أزواجهن، وصلاتهن بأبنائهن ^(٨)، وحالتهن الصحية ^(٩).

(٣) الرجل، والمرأة بين التعدد والتأيم : (١٠)

نهدف - من دراسة هذه القضية - إلى رصد موضوع (تعدد الزواج) فى القرن التاسع الهجرى على مستوى الرجال والنساء، حيث يتجه بعض الرجال للجمع بين أكثر من زوجة فى وقت واحد، وقد يكرر بعض الرجال والنساء تجربة الزواج بعد الطلاق، أو وفاة أحد الزوجين . وفى النهاية نسجل بعض الملاحظات، التى هى - فى حقيقتها - استثناءات من الحالات السابقة، وتمثل

- (١) مثل : ترجمة (حسية بنت يحيى بن أبى الخير) فى (الضوء اللامع) ٢٠ / ١٢ (رقم ١٠٩) .
- (٢) مثل : زينب بنت الناصرى) فى (المصدر السابق ٤٧ / ١٢ رقم (٢٨٠) .
- (٣) مثل : (ألف بنت العلاء على بن التاج) التى تزوجت - بعد وفاة زوجها قاضى الخنابلة بمكة الشريف السراج عبد اللطيف - بمن لا وجهة له . (السابق ٨ / ١٢ رقم ٤٢) .
- (٤) مثل : زينب بنت عبد الهادى التى ماتت فى عصمة زوجها ابن عمها البدر السعدى قاضى الخنابلة بمصر بعد أن حجت معه ومع أبيها . (السابق ٤٣ / ١٢ رقم ٢٥٤) .
- (٥) مثل : (ألف بنت عبد الرحيم بن الناصرى) فى (السابق ٨ / ١٢ رقم ٤٠)، وخديجة زوج المؤيد شيخ فى إمرته، وتزوجت بعد موته أركماس النوروزى، وماتت فى عصمته، وورثها من بعدها . (السابق ٣٣ / ١٢ رقم ١٩٢) .
- (٦) كما هو الحال مع (ألف بنت الولوى محمد بن أحمد بن يوسف) . (السابق ٨ / ١٢ - ٩ رقم ٤٣) .
- (٧) كما هو الحال فى ترجمة (سعادة بنت السراج عبد اللطيف المكية) . (السابق ٦٤ / ١٢ رقم ٣٨٧) .
- (٨) بعد موت المحب بن الشحنة سافرت زوجته (ألف بنت الولوى) مع ابنتها جويرية إلى حلب، ثم عادت، وماتت بالقاهرة . (السابق ٨ / ١٢ - ٩ رقم ٤٣) .
- (٩) لم تتزوج (عاض الكريم) بعد وفاة زوجها، وأصيب بالفالج مدة، ثم توفيت (السابق ٧٢ / ١٢ رقم ٤٤٧) . وجاء فى ترجمة (فاطمة بنت محمد بن إبراهيم البيجورى) : أنها - بعد وفاة زوجها - أقامت دون زواج، وحجّت غير مرة، ثم مرضت بعض الوقت، وتوفيت . (السابق ٩٩ / ١٢ رقم ٦٢٤) .
- (١٠) أمّت المرأة تئيماً أيماً: أقامت بلا زوج بكرة، أو تئياً . (المعجم الوسيط، مادة: أ.ى.م) ج١ ص ٣٥ .

فى اكتفاء بعض الأزواج بزوجة واحدة فى حياتها، ولا يقترنون بغيرها بعد ممتها، وتأيم بعض النساء بعد فراق أزواجهن (بالطلاق، أو بالوفاة) مؤقتاً، أو مؤبداً . وأخيراً إلقاء الضوء على موضوع (العنوس) وهو - على كل حال - مرتبط بمجموعة محدودة من النساء والرجال على حد سواء .

أ- جمع الرجل بين أكثر من زوجة فى وقت واحد :

لدينا بعض النماذج الدالة على ذلك وهى قليلة جداً بالقياس إلى المئات من تراجم النساء فى (الضوء اللامع) للسخاوى ؛ مما يدل على أن الرجال كانوا يفضلون تطليق الزوجة الأولى، والاقتران بغيرها إن أرادوا ؛ نظراً لما يترتب على الجمع بين أكثر من واحدة من مشكلات هم فى غنى عنها . وسوف نرى من عرض بعض النماذج أن المرأة لم تكن تقبل أن تشاركها فى زوجها امرأة أخرى، ويترتب على ذلك عواقب وخيمة وآثار خطيرة بالنسبة للزوجة الأولى، ويضطر الرجل غالباً للتعدد السرى، الذى سرعان ما يتم كشف النقاب عنه ؛ مما يرغمه على ترك الزوجة الجديدة، والاكْتفاء بالأولى . ومن شواهد ذلك : تزوج حبيبة الله بنت الصفى عبد الرحمن بن محمد ابن عمها العلاء محمد بن السيد عفيف الدين . ورغم أنها امرأة صالحة متدينة جاورت معه بمكة فترة طويلة، وكان لها منه أولاد، إلا أنه - قرب نهاية عمره فيما يبدو - تزوج عليها سرّاً عزيزة بنت على بن أحمد الزيادى القاهرى . فلما علمت زوجه الأولى، بادر إلى فراق الثانية ؛ خشية سخط ابنة عمه عليه . وقد عاشت حبيبة الله بعده (بعد وفاته) دهرًا، حتى توفيت سنة ٨٩٥هـ عن ثمانية وسبعين عاماً^(١) . وبالنظر إلى الدوافع التى دفعت هذا الزوج للزواج على امرأته، فإننا يمكن أن نقول : كبر سن زوجته، وتطلعه إلى من تصغرها سنًا، ومن ثم تفوقها شبابًا، وجمالاً وحيوية ؛ فالزوجة الثانية ولدت سنة ٨٤٦هـ (أى : بعد مولد الأولى بتسعة وعشرين عاماً)^(٢)، وكذلك انشغال الأولى بالطاعة والعبادة والمجاورة الطويلة

(١) الضوء اللامع ١٩/١٢ (رقم ١٠١) .

(٢) راجع ترجمة الزوجة الثانية فى (السابق) ٨٢/١٢ (رقم ٥٠٥) .

بمكة، ولعلها أثرت ذلك على العودة معه إلى القاهرة . فلما رأى بالقاهرة زوجته الثانية، أعجب بها وتزوجها . ويبدو أنه أراد التوجه إلى مكة ثانية، حيث جوار زوجته الأولى، فسافرت الثانية بعده بصحبة أخويها (١)؛ للحاق به . وهناك اكتشف أمر زواجهما، ففارقها، ثم ردها ثانية سراً - فيما يغلب على الظن - حتى وفاته وهي في عصمته في توقيت لا نعرفه، وماتت الزوجة الشابة في ريعان شبابها بعد ذلك سنة ٨٧٩هـ عن ثلاثة وثلاثين عاماً (٢) .

وثمة شاهدان آخران يبينان مبلغ الضرر الشديد المترتب على الزواج بالثانية . فقد تزوج المحب الطبرى على زوجة أم الحسين، فتسبب ذلك - فيما يقال - فى اختلال عقلها، فلم يكتف بذلك بل طلقها فظلت مهملة، حتى وُجدت ميتة سنة ٨٨٥هـ (٣) . والمصير نفسه كان نهاية (أم كلثوم بنت إبراهيم بن أحمد المكى)، حيث جمع الزوج بينها وبين أم الحسن بنت أبي العباس بن عبد المعطى مدة، ثم أصاب الجنون أم كلثوم، وظلت بعد وفاته حتى سنة ٨١٤هـ، حين لقيت ربها هي الأخرى (٤) .

ب-زواج الرجل والمرأة بعد الطلاق، أو بعد وفاة أحدهما :

هذا أمر مشهور ومنتشر فى عالم الرجال، والنساء على حد سواء . فمعظم الرجال يتزوجون بنساء أخريات بعد تطليق زوجاتهم أو وفاتهن . فرعاية الزوج، والبيت، والأولاد مما يستهدفه هذا الزواج من جانب الرجال . أما المرأة، فتحتاج لمن يُعفها عن الحرام، وينفق عليها، ويحقق لها الأُنس والمودة

(١) أحمد، ومحمد . وهم جميعاً ينسبون إلى محلة زياد (بتشديد الياء) من الغرية . وولد أحمد سنة ٨٤٣هـ، ودرس هو وأخوه القرآن، والحديث، والفقه، وجاورا مع أختيهما بمكة والمدينة . وكان أحمد فقيراً خيراً متودداً، وكان أخوه محمد أكبر منه (ولد قبيل ٨٤٠هـ تقريباً)، وأفضل . (راجع ترجمة أختيهما على التوالى فى: الضوء اللامع ١٢/٢ رقم (٣٤)، ٨ / ١٦٩ (رقم ٤٠٥) . وواضح أن الأسرة فقيرة صالحة تحب العلم، والوالدين غير موجودين، ولعل هذا كان من أسباب الموافقة على اقتران أختيهما الصغيرة بالعلاء بن عفيف الدين .

(٢) المصدر السابق ٨٢/١٢ (رقم ٥٠٥) .

(٣) السابق ١٢/١٤٠-١٤١ (رقم ٨٦٦) .

(٤) السابق ١٢/١٤٩ (رقم ٩٢٣) .

والرحمة . وسنلاحظ من خلال الشواهد التاريخية، التي سنسوقها بعد قليل، أن الطلاق مستشر في جموع النساء، بل يمكن للمرأة الواحدة أن تُطلق وتزوج عدة مرات، وذلك ربما يعنى أن الطلاق آمنٌ للرجال من تعدد الزوجات، وأن باب الزواج من الثيبات مفتوح على مصراعه، لا يكلف الرجال كثيراً، وأن هناك بعداً عن تعاليم الإسلام في اختيار الأزواج والزوجات، ثم يفاجأ الكثيرون والكثيرات بعد ذلك بعدم التوافق والانسجام، فتستحيل العشرة، ويكثر الطلاق، إلى غير ذلك من الأسباب التي سردناها آنفاً . ومن نماذج ما تقدم : زواج البقاعى سعادات بنت الشيخ نور الدين البوشى بعد مفارقتها زوجته أخت الشمس السنباطى، ثم استجابته طلب زوجته سعادات بتطليقها، فتزوجت بعده يحيى بن أحمد بن عبد العظيم الخانكى أحد طلاب العلم من تلاميذ أبيها، فتحسر البقاعى لأجل ذلك . وظلت مع زوجها هذا حتى مات، فتزوجت بعده محمد ابن مزيرع^(١) . والمطالع لتراجم النساء يجد نماذج صارخة عديدة ؛ فهناك من تزوجت ثلاث مرات^(٢)، بل من تزوجت أكثر من ست مرات بعد طلاقها من بعض الأزواج، ووفاة أزواج آخرين^(٣) . ويبدو أن هذا الاتجاه لم يكن مستهجناً من العقلاء، فقد أخذ البعض على (زينب بنت جرباش) زواجها بعد وفاة زوجها السلطان الظاهر جقمق، وربما نَقَمُوا ذلك عليها ؛ لأنها فكرت في الزواج بعد السلطان، لكن السخاوى رد باختصار وحسم : ونقم عليها ذلك من لم يتدبر^(٤) . وهذا حقيقى ؛ لأنها كانت شابة صغيرة، يُخشى عليها غوائل الفتن، فزواجها أكرم وأعفّ لها، فقد ماتت بعد زواجها الأخير عن حوالى أربعة وثلاثين عاماً سنة ٨٦٤هـ^(٥) .

وفى نهاية حديثنا عن (التعدد، وأسبابه) نضيف سبباً آخر إلى جملة

(١) الضوء اللامع ١٢/٦٢-٦٣ (رقم ٣٧٧) .

(٢) السابق ١٢/٣٠ (رقم ١٧٤)، ص ٩٩ (رقم ٦٢٥) .

(٣) السابق ١٢/٣١ (رقم ١٨٠) .

(٤) السابق ١٢/٤٠ (رقم ٢٣٧) .

(٥) السابق ١٢/٤٠-٤١ (رقم ٢٣٧) .

الأسباب السابقة، وذلك في ضوء ما لدينا من مادة تاريخية، فقد ذكر لنا المؤرخ ابن قاضي شهبة، وهو يترجم للخطيب العدل المعمر بقية المُسندين والمحدثين أبي الحسن علاء الدين سبط القاضي نجم الدين الدمشقي، قال: كان يتسرى إلى آخر وقت. وهو شيخ هيئته حسنة، ولباسه حسن^(١). وإذا كان هذا المثال لا ينطبق تمامًا على الزواج، ويتصل بـ(التسرى)، فالحكمة من إيراده واضحة، وهي أن بعض الرجال يتمتعون بقدرة جنسية فائقة لا تُضارع، ويمتد وجودها معهم، وتَحلِّيهم بها إلى أن يبلغوا من العمر أرذله، وهذا يأتي في مقدمة أسباب تعدد الزواج، بل الجمع بين الزوجات، والإكثار من اقتناء الإماء. وثمة شاهد أخير منطبق على الزواج، ويدعم ما قلناه، ذكره ابن قاضي شهبة عن الإمام ابن حجر في ترجمة(خليل بن عثمان بن عبد الرحمن المصري القارئ)، قال عنه: كان يكثر التزوج؛ لأنه كان به داء الانتصاب، فكانت المرأة لا تقوى معه على ذلك، فيفارقها ويتزوج غيرها، وهو قد جاوز الثمانين^(٢).

ملاحظات استثنائية: هناك نوعيات من الرجال والنساء يُستثنون من ظاهرة (تعدد الزواج)؛ إذ هم قلة بالقياس إلى النماذج، التي تعج بها مصادرنا في ميدان الإكثار من الزواج. ويمكن تصنيفهم على النحو الآتي:

أ- رجال همسكون بزوجاتهم، لا يتزوجون عليهن في حياتهن، ولا بعد وفاتهن: من هؤلاء الرجال الأمير (إينال ٨٥٧-٨٦٥هـ) الذي تزوج زينب بنت العلاء على بن العالم البدر محمد الحنفي سنة ٨٢٥هـ بعد وفاة أختها التي كانت زوجة له، فلم يتزوج على زينب هذه لا قبل السلطنة ولا بعدها حتى مات، بل لم يتخذ جارية معها، وكل أولاده -المؤيد أحمد، وغيره- منها، فانفرد بذلك عن سائر الملوك^(٣). وكذلك فعل السلطان خشقدم - بشيء من الاختلاف - مع شكرباي

(١) تاريخ ابن قاضي شهبة (ط. دمشق ١٩٧٧م، بتحقيق: عدنان درويش) ج٣ ص٦٧٩-٦٨٠، (تراجم وفيات سنة ٨٠٠هـ).

(٢) المصدر السابق (ط. دمشق ١٩٩٧م، بتحقيق: عدنان درويش)، ج٤ ص٤٤-٤٥ (تراجم وفيات سنة ٨٠١هـ).

(٣) الضوء اللامع ١٢/٤٤-٤٥ (رقم ٢٦١).

الجركسية الناصرية التي تزوجت قبله مرتين، كانت في أولهما زوجة للناصر فرج بن برقوق بعد أن أعتقها . فلما تزوجها خشقدهم قبل السلطنة ظل وفيًا لها حتى تسلمن (٨٦٥-٨٧٢هـ)، وراعى قدمها وسنها، فلم يتزوج عليها، لكنه اعتزلها - ربما لكبر سنها - وتَسَرَّى بَعْدَهُ جوار، صِرْنَ أمهات أولاد (أنجبين منه)^(١) . أما القاضي محمد بن الأمشاطى الحنفى (٨١١-٨٨٥هـ)، فقد عرض عليه الدوادار الكبير شراء بيت له، ويعطيه جارية حسناء، وذلك على سبيل الحقيقة ؛ أو المؤانسة والمزاح، فامتنع . وقد ماتت زوجته بعد ذلك، فأحضر جارية تركية صغيرة، اشتراها وأكثر من كسوتها وحليتها، قاطعًا بذلك الطريق على النساء اللاتي قد يعرضن أنفسهن عليه للزواج منهن^(٢) .

ب-نساء تأيمن مؤقتًا، وأخريات تأيمن إلى الأبد : هذه الظاهرة عاجلنا شقها الأول عند تناول (تعدد الزواج)، وإن كان تركيزنا منصبًا على إقبال الزوجات على الاقتران بأزواج آخرين بعد تطليقهن، أو موت أزواجهن، وتكرار ذلك من بعضهن مرات عديدة . أما هنا، فنحن نركز على التأيم بنوعيه . وقد ظهر لنا أن النساء - سواء كن في طبقة الممالك، أم العامة - كان لهن موقفان لا ثالث لهما : إما أن يتزوجن مرة واحدة بعد الزوج الأول، ثم يتأيمن^(٣)، وقد يتكرر الزواج مرتين^(٤)، أو ثلاثة^(٥)، أو أكثر من ذلك^(٦)، ثم يتأيمن حتى الوفاة . وأما الموقف الثانى، فهو الرفض التام للزواج بعد الزوج الأول^(٧)، وعدم إجابة

(١) الضوء اللامع ٢٣/٦٨-٦٩ (رقم ٤١٧) .

(٢) الذيل على رفع الإصر ص ٢١٦ .

(٣) مثل : حواء بنت السراج عمر بن حسين الحمصى التي تزوجت بعد زوجها من القائم بأمر الله الخليفة العباسى، وتأيمت بعده (الضوء اللامع ١٢/٢٣ رقم ١٢٨) .

(٤) مثل : خديجة بنت عبد العظيم التي تزوجت بعد الزوج الأول تاج الدين بن كاتب الدواليب، ثم عبد القادر بن البلاح الذى فارقتها، فتأيمت بعده . (المصدر السابق ١٢/٢٨ رقم ١٥٨) .

(٥) مثل : عائشة بنت الشمس محمد بن حسن البلقىنى التي تزوجت - بعد الزوج الأول وهو قريبها - أبا البقاء ابن العلم البلقىنى، وعبد القادر بن الرحى، وأبا السعادات البلقىنى أيامًا فى سفر زوجته، وتأيمت مدة، ثم ماتت . (السابق ١٢/٨٠ رقم ٤٩٢) .

(٦) راجع التفصيل فى (السابق) ١٢/٣١ (رقم ١٨٠) .

(٧) مثل : ترجمة (هاجر بنت الجمال عبد الواحد الوشى القاهرى جدة السخاوى لأمه)، حيث لم تتزوج أحدًا بعد زوجها الأول (جد السخاوى) حتى الممات . (السابق) ١٢/١٣١ (رقم ٨٠٥) .

من يعرض عليهن الزواج^(١). ولا شك أن النساء عموماً مختلفات في ظروفهن من حيث : السن والرغبة، والجمال، والشباب، والحيوية والتطلع إلى الحياة، ووجود الأولاد، والوضع الاقتصادي، والقدرة على التحمل، ودرجة التقوى والصلاح، ودرجة الحب والحنان تجاه الزوج السابق والأولاد . وكل واحدة تتخذ ما يتوافق مع حالتها، وحقيقة مشاعرها، التي لا يستطيع أحد قياسها إلا هي نفسها، شريطة أن تفكر تفكيراً قويمًا، وتحكم العقل والعاطفة معًا.

ج- العنوس^(٢) بين الرجال والنساء : الحق أن مكث البنت البكر في بيت أبويها دون زواج حتى يكبر سنها لا يرقى إلى مستوى الظاهرة في القرن التاسع الهجري الذي هو موضوع هذا البحث، إنما التعدد هو الظاهرة الواضحة . فالعنوس - إدا - يمثل حالات فردية لها ظروفها الخاصة لدى الرجال والنساء . ولدينا مثال وحيد لرجل عانس هو العالم محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز، الذي قال عنه ابن حجر - وكان قد لازمه منذ سنة ٧٩٠هـ إلى سنة وفاته ٨١٩هـ - : لم يتزوج فيما علمت، بل كانت عنده زوجة أبيه، فكانت تقوم بأمر بيته، ويبرها، ويحسن إليها^(٣) . فلعل انهماكه في العلم والمصنفات، ومجالس العلم، ووجود من تقوم على شئونه، وعدم وجود رغبة ملحة لديه في الاقتران بالنساء، جعلته لا يقدم على الزواج حتى وفاته .

أما بالنسبة للنساء، فإن العوانس منهن أكثر من الرجال . فها هي آسية بنت فرج بن برقوق توفيت في عشر الستين دون زواج . وكانت أمها حبشية

(١) مثل : أم الكامل بنت السيد رُمَيْثَة بن محمد بن عجلان المكية، التي رفضت الزواج مطلقاً بعد موت زوجها الأول (أبي القاسم بن حسن بن عجلان)، وامتنعت من إجابة أخيه السيد بركات . (الضوء اللامع ١٤٨/١٢ رقم ٩٢١) .

(٢) عَنَسٌ يَعْنِي عَنَسًا، وَعُنُوسًا، وَعِنَاسًا . البنتُ البِكْرُ : طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها، ولم تتزوج، فهي عانس . والجمع : عَنَسٌ، وَعَنَسٌ، وَعَوَانِسٌ . وَعَنَسُ الرَّجُلُ : أَسَنَ، ولم يتزوج، فهو عانس أيضًا، وإن كان استعمالها في النساء أكثر . (لسان العرب لابن منظور، مادة : ع. ن. س، ج٤ ص٣١٢٨-٣١٢٩، والمعجم الوسيط ٢/٦٥٤) .

(٣) إنباء الغمر ٣/١١٦ .

أم ولد (١). وهذا شئٌ مستغرب ؛ لأنها ابنة سلطان، فكيف ظلت طيلة هذ
السنين دون تزويج والدها إياها؟! وكثيراً ما يذكر السخاوي نساء عوانس دون
أن يعلل سبب ذلك (٢)، خاصة أن بعضهن معمرات (٣)، وخيرات متقنات (٤)،
مع ملاحظة أن بعضهن لا يدخلن - فى رأى - فيمن فاتهن قطار الزواج (٥).
وأحياناً نضع أيدينا على سبب عنوس بعضهن كأن يكون أخو الفتاة هو سبب
عنوسها ؛ لأنه لم يجب من سأل زواجها (٦). وقد تكون المرأة هى الراضة
للزواج، كما هو الشأن مع (أم راجح ستيت بنت على بن أبى البركات المكية)،
التي خطبت غير مرة، فامتنعت، وانشغلت بالمجاورة بالمدينة، والعبادة، وكثرة
الطواف، وأعمال البر والخير، ثم قامت بكفالة ولد أخيها أبى السعود بعد موت
أمه (زوجة أخيها)، فاعتنت به تماماً كأنها أم حقيقية له (٧). وكأنها تفرغ طاقة
حنان الأمومة داخلها فى شخص ابن أخيها هذا .

(٤) أوضاع المرأة الاقتصادية :

نحاول - من خلال المعالجة المختصرة - أن نبين المستويات الاقتصادية
المتفاوتة للطبقات المختلفة لنساء القرن التاسع الهجرى، من خلال الإشارة إلى
بعض موارد، ومجالات إنفاقها، مركزين على المشكلات الاقتصادية، والمآسى
التي تعرضت لها بعض نساء ذلك العصر من حيث الجانب المالى والمعيشى .

(١) النجوم الزاهرة ١٦/١٨٧ .

(٢) الضوء اللامع ١٢/٢٢ رقم ١٢٢ (ماتت خالية من زوج، وهى أسن من أخيها الواعظ)، وماتت
بكرًا (المصدر السابق ١٢/١٠١ رقم ٦٣٦) .

(٣) الضوء اللامع ١٢/١١٦ (رقم ٧٠٦) : كانت معمرة بكرًا عذراء .

(٤) السابق ١٢/٤٠ رقم ٨٦٣ : قد قاربت الأربعين . أما وقد بلغت هذه السن، فإنها - بمقاييس
ذلك العصر - صارت عانسًا، بل أقل من ذلك بكثير ؛ لأن سن الزواج عندهم - كما رأينا سلفًا -
قد يبدأ من الثامنة، أو العاشرة .

(٥) مثل قوله : ماتت قبل أن تتزوج . (السابق ١٢/١٣٦ رقم ٨٣٥) . فلعلها ماتت صغيرة قبل أن
يحين زواجها . وكذلك قوله عن إحداهن : ماتت وهى بكر سنة ٨٣٣هـ بمكة، وكان قد ذكر أن
مولدها سنة ٨١٠هـ، فهى - إذن - توفيت عن ثلاثة وعشرين عامًا، فتكون تأخرت نوعًا ما عن
السن المبكرة للزواج، لكنها لا تسمى عانسًا . (راجع ترجمتها فى : السابق ١٢/١٣٧ رقم ٨٤٣) .

(٦) السابق ١٢/١٣٨ (رقم ٨٥٠) . (٧) السابق ١٢/١٤٦ (رقم ٩٠٩) .

أ- من مظاهر الغنى والشراء : عملت بعض النساء بالتجارة، كما هو الحال بخصوص (عائشة العجمية) زوجة الخوaja البرهان إبراهيم الجيلاني . ومن خلال لقب زوجها (الخوaja) - وهو يعنى أحد كبار التجار - نستشف غنى و ثراء هذه الأسرة . ويبدو أن عائشة حافظت على تجارة زوجها، وقامت بثميرها، ونجحت فى ذلك من بعده، حيث كانت تسكن مدينة عدن اليمنية، وتتردد بتجارتها على مكة مراراً، وبها توفيت سنة ٨٠١ هـ . وكانت ذات خير ومروءة (١) .

ومن النساء الشهيرات بالثراء : (سورباى الجركسية حَظِيَّة الظاهر جقمق)، التى يقال : إنها تركت بعد وفاتها من الحُلَى والحُلَل ما لا يوصف كثرة، بالإضافة إلى مبلغ خمسين ألف دينار، بخلاف الدور والحمامين، وغير ذلك مما كانت تمتلكه (٢) . وكان لـ (فرح بنت أيتمش الخضرى) أملاك، وأوقاف، و ثروة زائدة (٣) . وكذلك خلّفت (قنقباى التركية) شيئاً كثيراً بعد وفاتها، فقد كانت إحدى حظيات الظاهر برقوق، وهى أم ولده المنصور عبد العزيز، وتزوجت بعده بعدد من كبار أمراء الدولة (٤) .

وهكذا، يمكن القول : إن ثراء نساء الممالك، وزوجات كبار التجار راجع إلى التجارة، ومنح وإقطاعات السلاطين . أما الطبقات الأخرى فى المجتمع، فمن الممكن أن تُحصَل بعض نساءها الأموال عن طريق الاقتران برجال أثرياء، يتعاقبون على الزواج منهم، وعن طريق الميراث يحققن ثروات كبيرة (٥) .

(١) الضوء اللامع ٥٧/١٢ (رقم ٣٤١، ترجمة ست الكل بنت الخوaja إبراهيم الجيلاني)، ص٨٢ (رقم ٥٠٠) .

(٢) السابق ٦٦/١٢ (رقم ٤٠٣) .

(٣) السابق ١١٤/١٢ (رقم ٦٩٠) . (٤) الضوء اللامع ١١٧/١٢ (رقم ٧١٠) .

(٥) راجع ترجمة (فرح بنت الناصرى محمد بن قطلوبغا دلال الممالك) فى (السابق) ١١٥/١٢ (رقم ٦٩٦) . وراجع ترجمة (عمر بن عبد العزيز بن أحمد الخروبي) الذى ورث أباه، وعمه، وقريباً له، وأخاه، فكان ينتقل بين الغنى المُضْرِب، والفقر المدقع . وكان سوء تديره يفسده الأموال الطائلة التى كان يرثها كثيراً . ويبدو أن أختيه (أمّة، وفاطمة) كانتا على درجة متفاوتة من الثراء، بحيث ورثهما واحدة بعد الأخرى، فحسنت حاله، وأدى كثيراً من ديونه بعد إرثه الأولى، بينما ورث من الأخرى قدراً من المال، فحسّن حاله قليلاً، إلا أنه مات وعليه ديون كثيرة . (إنباء الغمر ٣/٢٨٩) .

وأخيراً، من مظاهر الثراء الفاحش فى القرن التاسع الهجرى الإسراف الشديد فى جهاز العروس، ومواكب الأفراح، ونقل الأثاث (١) .

ب- من مظاهر الفقر والحاجة : من الممكن تلمس الشواهد الدالة على الفقر والاحتياج، الذى يعترى المرأة فى ظل ظروف معينة، ولأسباب محددة، للمرأة نفسها دخل فى بعضها فيما يلى : قد تنشأ المرأة فى بيت متواضع، يموت عائلته، فتتحول إلى بيت آخر خادمة يتيمة (٢) . وقد تكون المرأة عزيزة فى ظل زوجها، فإذا مات تفتقر مع من تعول (٣) . وكثيراً ما تكون المرأة ذات مال عظيم، لكن إسرافها وتبذيرها يبدلها بعد العز ذلاً وانكساراً (٤)، وقد تتول بعض الأملاك إليها، فلا تحسن إدارتها والاستفادة منها، فتبيعها بأبخس الأثمان (٥) . ومن مظاهر فقر المرأة وحرمانها أن تُحرم هى وأخوتها لسنوات من صرف القمح الذى يكفيهم ذل السؤال، ويحقق لهم الحد الأدنى من الكفاف (٦) وقد تتدهور أحوال المرأة المادية ؛ لأمر خارج عن إرادتها، لا دخل لها فيه كأن تنفق جُل ما تملك لعلاج أبيها المريض المسرف فى النفقات المبدد للأموال (٧) .

ج- من مشكلات المرأة الاقتصادية : باستعراض النصوص التاريخية الخاصة بأزمات المرأة المادية وأسبابها، والمتاعب والآلام التى كانت تتعرض لها من جراء اعتبارها من الثريّات فى القرن التاسع الهجرى، تبين لنا أن ظلم المرأة وحرمانها من الميراث كان على رأس المظالم التى تتعرض لها من قبل بعض

(١) راجع تفاصيل أفراح عليّة القوم فى : (حوادث الدهور لابن تغرى بردى ٢٠٥/١، وإنباء الهصر للصيرفى ص٢٥٣-٢٥٤) .

(٢) كما كان الحال مع (خديجة بنت محمد بن أحمد البدرشيني)، التى كان أبوها يشتري العجوة ويبيعها . فلما مات، ذهبت إلى بيت عمها، الذى كان من أثرياء البدرشين، لكنّها - فيما يبدو - لم تسعد فى بيته الذى يملكه، فنشأت فى خدمته يتيمة . (الضوء اللامع ٣٢/١٢ رقم ١٨٤) .

(٣) مثل : حواء بنت السراج عمر بن حسين الحمصى، التى كانت متزوجة الخليفة العباسى القائم بأمر الله، ثم تزوجت آخر بعده، وتأيمت بعده، وافتقرت هى وابنتها . (المصدر السابق ٢٣/١٢ رقم ١٢٨) .

(٤) راجع التفاصيل فى : السابق ٥٥/١٢ (رقم ٣٢٤)، ص٧٥ (رقم ٤٦٠)، ص٩٢ (رقم ٥٧٢)، وإنباء الهصر ص١٣٢ .

(٥) حيث باعها بألف دينار فقط، بدلاً من عشرة آلاف دينار . (إنباء الغمر ٤١١/٣) .

(٦) إنباء الهصر ص٣٨٨ .

(٧) الضوء اللامع ١٣/١٢ (رقم ٦١) .

الآباء^(١)، والأوصياء^(٢) . وقد يحرم ابنها من نصيبه في تركة أبيه، فتسعى الأم للمطالبة بحقه الشرعى فى مال أبيه^(٣) . وقد تتعرض المرأة لظلم كبار القوم واعتدائهم على ممتلكاتها من الأراضى، فتلجأ إلى السلطان ؛ مطالبة برد حقوقها المغتصبة، وإنصافها ممن جار عليها^(٤) . ولما كانت المصادرات شائعة فى عصر المماليك بالحق وبالباطل، فقد تعرضت بعض النساء ممن عرفن بالشراء للعقاب والتعذيب البدنى مع أزواجهن لإخراج الأموال التى يحتفظون بها^(٥)، كما تعرضت إحدى النساء لعقوبة القتل، وأهدر دمها ؛ لاتهامات بالمماطلة فى أداء ما عليها من دين، رغم إعسارها، ووجود ما يثبت صحة ذلك معها^(٦) .

(٥) أوضاع المرأة الصحية :

تلك قضية مهمة للغاية تدخل فى صميم رصدنا لأحوال المرأة الخاصة فى القرن التاسع الهجرى ؛ لأنها تتصل بأهم ما يتعلق بالإنسان (الصحة) . وسوف نتعرض لمتوسط أعمار النساء، وبعض الحوادث التى يتعرضن لها، وتفضى إلى الموت، والأمراض المنتشرة بين النساء، وأسباب الوفيات بصفة عامة، مع إيراد الإحصاءات اللازمة فى كل ذلك .

(١) من ذلك : أنه لما مات تقى الدين بن وهبة، وُجد لديه أكثر من عشرين ألف دينار، وكان له أربع بنات، فقام الوزير تاج الدين حتى أثبت أنهن نصرانيات، فمنعهن الميراث، وحمل التركة كلها إلى السلطان الظاهر برقوق (٨٠١هـ)، فوقع منه موقعاً طيباً، وخلع عليه خلعة هائلة . (إنباء الغمر ٤٧/٢) . ولا شك أن هذا أكل لأموال اليتامى ظلماً . قال الله (تعالى) : " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً " . (سورة النساء: ٤/ الآية ١٠) .

(٢) حاول الوصى الأمير لاجين منازعة امرأة فى نسبها، وحاول أن يكتسب انتسابها لفارس البكتمرى الذى مات وترك أموالاً هائلة، لكن ثبت بعد ذلك للقضاة بالبينة الشرعية أن نسب المرأة لاحق بنسب المتوفى . (إنباء الهصر ص ٢١٧) .

(٣) راجع ترجمة (سلامة بنت عبد العزيز بن عبد السلام المكي)، التى قدمت القاهرة مع بعض إخوتها ؛ لاستخلاص حق ولدها فى تركة أبيه . (الضوء اللامع ٦٦/١٢ رقم ٣٩٨) .

(٤) راجع التفاصيل فى : إنباء الهصر ص ٤٧١-٤٧٢ .

(٥) راجع التفاصيل فى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٣٥٦-٣٥٧، وتاريخ ابن قاضى شهبه ج ٣ ص ٦٧٢،

وإنباء الغمر ٩٢/٣ .

(٦) الضوء اللامع ٢٨١/٣ .

ويلاحظ - في البداية - أن إحصاءات الشرائح العمرية للنساء المترجمات في (الضوء اللامع) لا تغطي أعدادهن جميعاً ؛ لأن هناك نساء لم يذكر السخاوى أعمارهن في تراجمهن^(١)، وبعض المترجمات متنّ صغيرات فلم يُعْمَرْنَ فهن خارج الإحصاءات^(٢)، والبعض معاصرات للسخاوى ولا زلن حَيَّات وقت تأليفه الكتاب^(٣).

والآن، مع بعض الشرائح العمرية، وإحصاءات تقريبية لها من خلال (الضوء اللامع) على النحو الآتي :

- ١- نساء توفين في (عَشْرُ الأربعين)، أى : بين سن الثلاثين إلى ما قبل الأربعين، وبلغ عددهن حوالى ثلاث وعشرين امرأة^(٤).
- ٢- نساء توفين في (عشر الخمسين)، أى : بين سن الأربعين إلى ما قبل الخمسين . وبلغ عددهن إحدى عشرة امرأة^(٥).
- ٣- نساء توفين في (عشر الستين) . أى : بين سن الخمسين إلى ما قبل الستين . وبلغ عددهن حوالى أربع وعشرين امرأة^(٦).
- ٤- نساء توفين في (عشر السبعين)، أى : بين سن الستين إلى ما قبل السبعين . وبلغ عددهن حوالى اثنتين وثلاثين امرأة^(٧).
- ٥- نساء توفين في (عشر الثمانين)، أى : بين سن السبعين إلى ما قبل الثمانين . وبلغ عددهن حوالى أربعين امرأة^(٨).
- ٦- نساء توفين في (عشر التسعين)، أى : بين سن الثمانين إلى ما قبل التسعين . وبلغ عددهن حوالى أربع وأربعين امرأة^(٩).

(١) كما في (المصدر السابق ٢/١٢ (رقم ٤)، ص ٣ (رقم ٧) .

(٢) راجع (السابق) ٣٨/١٢ (رقم ٢٢٣)، ٨٨ (رقم ٥٤٢، ٥٤٤) .

(٣) السابق : ٣/١٢ (رقم ٦) . ص ٦٣ (رقم ٣٧٧) .

(٤) السابق ٢٠/١٢ (رقم ١٠٩)، ص ٤٠-٤١ (رقم ٢٣٧)، ص ٥١ (رقم ٣٠١)، وغيرها .

(٥) السابق ٢٥/١٢ (رقم ١٤١)، ص ٤٩ (رقم ٢٩٠)، ص ٥٤ (رقم ٣٢٠)، وغيرها .

(٦) السابق ٣/١٢ (رقم ٥)، ص ٢٦-٢٧ (رقم ١٤٨)، ص ٢٩ (رقم ١٦٨)، وغيرها .

(٧) السابق ٤/١٢ (رقم ١٧)، ص ١٧ (رقم ٩٠)، ص ٣١ (رقم ١٨٠)، وغيرها .

(٨) السابق ٢/١٢ (رقم ٢-١)، ص ٨ (رقم ٤١)، وغيرها .

(٩) السابق ٥-٤/١٢ (رقم ٢٠)، ص ٩ (رقم ٤٥)، ص ١٠ (رقم ٤٩)، وغيرها .

٧- معمرات فوق التسعين : وهؤلاء بلغن عشر نساء (١) .

يمكن عرض الأسباب المفضية إلى موت كثير من نساء القرن التاسع الهجرى، والأمراض المؤدية إلى وفياتهن، مع بعض الإحصاءات التقريبية (٢) المرتبطة بها على النحو الآتى :

(١) حوادث تتعرض لها بعض النساء : من ذلك تعرض بعضهن للموت تحت هدم (٣)، أو سقوط حائط المنزل عليهن (٤) . ولا شك أن الاهتمام بترميم منازل الرعية لم يكن معروفاً آنذاك، بل أحياناً كان التهاون يقع بخصوص بعض المباني العامة كسقوط منارة مدرسة قديمة جداً فى سوق الصاحب تعرف بـ (الفخرية)، أقامها الفخر عثمان بعد سنة ٦٠٠هـ، فسقطت سنة ٨٤٩هـ بعد أن مالت قليلاً فحُذِر سكان الربيع المجاور لها، وهو داخل فى جملة أوقافها، فتهاونوا حتى سقطت على واجهة المدرسة والربيع، وهلك تحت الردم بعض الناس، وقدم الوالى والحاجب، وأمروا باستخراج الموتى والأحياء المصابين، وغرّم المسئول دية الموتى (٥) .

تتعرض بعض النساء - خاصة بعد تقدم السن - للسقوط أثناء المشى ؛ نتيجة ضعف الحركة (٦)، وهشاشة العظام . وقد تعرضت بعض المترجمات لذلك، وأعقبته الوفاة بقليل . وقد يكون السقوط من سطح الدار، ويؤدى إلى الوفاة أيضاً (٧) .

-
- (١) السابق ٥٢/١٢ (رقم ٣٠٧)، ص٨١ (رقم ٤٩٥)، ص١٠٥ (رقم ٦٦١)، وغيرها .
(٢) ليست هذه الإحصاءات شاملة لجميع تراجم النساء فى كتاب السخاوى ؛ لأنه لم يلتزم دوماً بذكر علة موت النساء المترجمات، فمثلاً أحياناً يقول : توفيت بعد مرض طويل أدى إلى الموت (الضوء اللامع ١٢/١٢ رقم ٥٨) . وأحياناً يقول : كانت كثيرة الأسقام (السابق ٩٥/١٢ رقم ٥٩٢)، أو يقول : تعلت أشهراً، وقاست أنواعاً حتى ماتت . (السابق ١٦٢/١٢ رقم ١٠٠٧) . وقد يكتفى بذكر مكان الوفاة، فيقول : ماتت بالبيمارستان المنصورى (السابق ١٣٢/١٢ رقم ٨٠٧) . والبعض يتوفى فجأة دون مرض . وقد ذكر منهن السخاوى ست حالات . (السابق ٤/١٢ رقم ١٦، ص٧ رقم ٣٦، ص٣١ رقم ١٨٠) .
(٣) السابق ٩/١٢ (رقم ١٠٠)، ٥٠ (رقم ٢٩٨) .
(٤) السابق ١٣٩/١٢ (رقم ٨٥٦) .
(٥) الذيل على رفع الإصر ص٨٣-٨٤ .
(٦) الضوء اللامع ٢٥/١٢ (رقم ١٤١)، ٩١ (رقم ٥٦٧) .
(٧) المصدر السابق ١٢٠/١٢ (رقم ٧٣٠) .

وقد تموت إحداهن غرقاً، كما حدث لـ (ست الجميع بنت علي بن أحمد الشيبى)، حيث غرقت في البحر بين ينبع وجدة في رجوعها من الزيارة النبوية^(١) .

(٢) الأمراض التي تتعرض لها نساء ذلك العصر :

أ-الطاعون : ويأتى على رأس الأمراض الخطيرة التي أصابت المجتمع عامة - ومنه النساء - حيث أتى على شباب الكثيرات منهن، كما لم يفرق بين صغيرات وكبيرات، خاصة سنوات تفشيه كوباء عام (٨٣٣هـ، ٨٩٧هـ) وغيرهما^(٢) . وقد ترجم السخاوى لحوالى عشرين امرأة توفين مطعونات^(٣) .

ب-كف البصر، وثقل السمع : وهذه من الأمراض المرتبطة - غالباً - بكبر السن، وقد أوردها السخاوى - غالباً - فى تراجم النساء المعمرات^(٤)، وقد تظل المرأة مكفوفاً بصرها مدة من الزمن حتى الوفاة^(٥)، وقد يُعقَّب كف البصر فالج يقعدهما^(٦) . وأحياناً يذكر سبب العمى، فيقول : لإصابتها بماء فى عينيها^(٧) .

وبلغ عدد المصابات بالعمى فى كتاب السخاوى حوالى ثلاث عشرة امرأة . أما السمع، فقد يثقل جداً حتى يضطر المتحدث لرفع صوته عالياً جداً^(٨)، وقد يقل قليلاً^(٩)، وقد يجتمع معه العمى^(١٠) . وبلغ عدد المترجمات ضعيفات السمع حوالى ثلاث نساء .

(١) الضوء اللامع ٥٤/١٢ (رقم ٣٢١) .

(٢) راجع تفاصيل وباء الطاعون، وآثاره المدمرة، ومزيداً من تراجم المطعونات فى : السلوك ٤٩٢/١/٤، ٤ / ٢ - ٨٢٢ - ٨٣١، ٨٣٦، وتاريخ ابن قاضى شهبه ٦٦٢/٣، وإنباء الغمر ٤٤٥/٣، ٤ / ٨٠، والنجوم الزاهرة ١٦/١٨٥ - ١٨٦، ودراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى (عصر سلاطين المماليك) د. قاسم عبده ص ١٥٢، وما بعدها .

(٣) الضوء اللامع ١٢/٥ - ٦ (رقم ٢٥)، ٢١ (رقم ١١٤)، ٢٣ (رقم ١٢٩)، ٣٣ (رقم ١٩٢)، ٤٠ - ٤١ (رقم ٢٣٧)، ٥١ (رقم ٣٠١)، وغيرها .

(٤) المصدر السابق ١٢/٢ (رقم ٢)، ١٣ (رقم ٦٤) .

(٥) السابق ١٢/١٦٠ (رقم ٩٩٨) .

(٦) السابق ١٢/٧٧ (رقم ٤٧٤) .

(٧) السابق ١٢/١٧٥ (رقم ٤٦٠) .

(٨) السابق ١٢/٤٢ (رقم ٢٤٤) .

ج- الأمراض الباطنة، وأمراض الجهاز الهضمي : وأول هذه الأمراض (داء البطن)، ولا نعرف كنهه بالضبط، لكنها آلام شديدة بالبطن قد تطول (١) لتصل إلى ثلاثة أشهر (٢)، يعقبها صرع ثم موت أحياناً (٣)، وقد تقع بعد الولادة بقليل، وتؤدي إلى الموت (٤). ومثل لذلك السخاوى بحوالى خمس نساء. وهناك مرض الحرقة (٥) (لعله عسر فى الهضم؛ لداء بالمعدة)، والحُمى (وبها توعكت إحداهن أياماً، ثم توفيت) (٦)، والاستسقاء (ولعله داء يصيب الكبد)، وبه يموت البعض (٧).

د- الأمراض النفسية، والعصبية : من هذه الأمراض : الصرع، وهو مرض عصبى قد يفضى إلى الموت (٨). أما مرض (الفالج)، فقد أورد لنا السخاوى ست حالات مصابات به، وهو مرتبط - غالباً - بكبر السن، وقد تطول فترة الإصابة به (٩)، وقد يحدث نتيجة هزة نفسية عصبية شديدة كما روى لنا السخاوى عن جدة أولاده (عائشة بنت الزين عبد الرحمن بن الشمس)، التى أصيبت به؛ نتيجة شائعة أشاعها الصلاح المكينى بوفاة السخاوى وهو مع زوجته بالحجاز، فأصيبت به تسعة أيام لا تعى شيئاً إلا قليلاً، ثم ماتت (١٠). وقد يؤدي الكمد وكبت الغيظ والحزن الدفين إلى الموت أيضاً، كما هو الحال بالنسبة لأم، غرق لها ولد قبيل موتها بيسير فى بركة بيتهم، فكظمت الغيظ والحزن ولم تبت، فماتت (١١). وكذلك أخت الظاهر برقوق التى قُتل ولدها بكرها. فعلى الرغم من الأمر بقتل القاتل، إلا أنها - فيما يبدو - لم تشف غليلها، وماتت قبل ذلك، محزوناً فؤادها، مكلومة نفسها (١٢). وكذلك مرض

- (١) الضوء اللامع ٥/١٢ (رقم ٢٠).
(٢) السابق ١٤٧/١٢ (رقم ٩١٤).
(٣) السابق ١٩/١٢ (رقم ١٠٢).
(٤) السابق ١١٧/١٢ (رقم ٧١٣).
(٥) السابق ١٢/١٢ (رقم ٢٩٠).
(٦) السابق ١١٥ (رقم ٦٩٥).
(٧) السابق ٥٠/١٢ (رقم ٢٩٧)، ص ١١٥ (رقم ٦٩٥).
(٨) إنباء الغمر ٢٧/٤، والضوء اللامع ١٧/١٢ (رقم ٨٩).
(٩) المصدر السابق ٢٢/١٢ (رقم ١٢٤)، ٧٢ (رقم ٤٤٧).
(١٠) السابق ٧٦-٧٧ (رقم ٤٧٤).
(١١) السابق ٨٣/١٢ (رقم ٥٠٦).
(١٢) السابق ١١٦/١٢ (رقم ٧٠٣).

(الماخوليه)، وهو ضرب من الجنون يصيب المرء فى عقله بصفة دائمة، أو بصورة مؤقتة يغيب معها العقل ويحضر^(١). وقد توضع المريضة فى المارستان أياماً، ثم يشفق عليها أهلها، فيخرجونها رعاية لها، فتظل عندهم حتى توافيها المنية^(٢). هذا، وقد ترجم السخاوى فى هذا الشأن لثلاث حالات .

وذكر لنا السخاوى ست حالات لنساء اختلطن (ضعفت عندهن القدرة على الضبط). فالبعض يختلطن قبل الوفاة بوقت يسير^(٣)، وقد يدوم الاختلاط سنين عدداً^(٤)، وقد يحدث لها حادث مؤلم، فيصاب عقلها بعض الشئ^(٥)، وقد يصاحبه انعدام شهوة الطعام مدة عشرين يوماً، بعدها تقع الوفاة^(٦).

هـ- أمراض الحمل، والولادة: وهذه تتعرض لها المرأة فى حالات كثيرة، فلم تكن الرعاية الصحية مكفولة آنذاك، وقد حدد لنا السخاوى بعض حالات النفاس والسقط بلغت حوالى إحدى عشرة حالة، توفى المرأة فيها إثر نفاس^(٧)، وقد تمرض أشهراً لسقط حدث لها، ثم تموت^(٨)، وقد تتعلل مدة شهر بعد الوضع، ثم تموت^(٩)، وقد تموت المرأة حاملاً أيضاً^(١٠).

و- أمراض الجهاز التنفسي: قد تموت المرأة لضيق نفس مفاجئ يعترىها، فتموت ولا يشعر بها أحد، كما حدث لأم زوجة الفاسى^(١١).

ز- المسالك البولية: من أمراض المسالك التى كانت تصيب المرأة حصر البول. وأصببت به كمالية بنت على بن عبد الكريم القرشى، التى قيل: إنها أخرجت

-
- (١) إنباء الغمر ١١٦/١٢ (رقم ٧٠٢): اختل عقلها عشرين سنة، يغيب ويحضر. فإذا حضر، تكلمت أحسن كلام، فأشبهت عقلاء المجانين. (٢) الضوء اللامع ٨٠/١٢ (رقم ٤٩٢).
(٣) المصدر السابق ٢٠/١٢ (رقم ١٠٨). (٤) السابق ٣٥/١٢ (رقم ٢٠٥).
(٥) ربما لموت زوجها (السابق ٥٨/١٢ رقم ٣٤٦).
(٦) السابق ١٢/١٣٩ (رقم ٨٥٨).
(٧) السابق ١٢/٢٠ (رقم ١٠٩)، وبدائع الزهور لابن إياس ٣/١٨٤-١٨٥ (حوادث سنة ٨٨٦هـ).
(٨) الضوء اللامع ١٢/٦٢ (رقم ٣٧٨).
(٩) المصدر السابق ١٢/٦٧-٦٨ (رقم ٤١٠).
(١٠) السابق ١٢/١٠٤ (رقم ٦٥٨)، ص ١٥١ (رقم ٩٣٩).
(١١) السابق ١٢/٩٩ (رقم ٦٢٥).

قبل موتها بيسير حجراً زنته بالمصرى ستة وثلاثون درهماً . فلما جفّ، نقص درهماً^(١) . ويبدو أن ما خرج منها حصة نزلت مع البول، كانت تمنع نزوله، وتسبب آلاماً مبرحة بلا ريب .

(٦) أوضاع المرأة النفسية والاجتماعية :

أ- من مظاهر معاناة المرأة : عانت المرأة في القرن التاسع الهجري معاناة شديدة، لكنها صبرت وتحملت في كثير من المواقف، فكانت كالجبال الشّمّ الرواسى . فها هي تتحمل مرض والدها، وإسرافه وتبذيره متجلدة حتى وفاته، ثم صدمت بوفاة عمّتها كبيرة بيتهم، التي تنكئ عليها ؛ مما زاد توجعها، ثم هي في - الوقت نفسه - لا تجد الإنصاف من زوجها الغائب عنها دوماً وعن بيته ومسئوليّاته إلا في القليل النادر^(٢) . وتلقت قضاء الله بصبر وثبات واحتساب رغم هول المصيبة الفاجعة المتمثلة في فقد ابنتيها الوحيدتين^(٣)، وأخرى مصيبتها أعظم ؛ إذ فقدت عدة أولاد لها، وأخاها، ثم زوجها، فكانت من الصابرات الراضيات^(٤) . وإحداهن - رغم تقدم السن بها - تعاني أهوال الفزع والقلق على ابنها التاج بن المقسى، الذي حُكم عليه بالقتل غير مرة، ثم رحمها الله فماتت قبيل مقتله بأيام سنة ٨٨٥هـ^(٥) . وكذلك عانت المرأة من الزوج المتعنت المتسلط الذي أساء إليها وإلى أخيها بما لا يطاق تحمله، فطلبت الطلاق، فأشهد عليها الزوج - تعجيزاً، وإذلالاً - أنها متى أرادت رؤية ولدها منه، أو أخذه، فعليها أن تدفع له خمسمائة دينار ؛ مما اضطرها إلى التنازل عن رؤية ولدها، وثمره فؤادها^(٦) .

(١) الضوء اللامع ١٢/١٢ (رقم ٧٣١) .

(٢) السابق ١٢/٢٥ (رقم ١٤٣) .

(٣) السابق ١٢/٣٧ (رقم ٢١٨) .

(٤) السابق ١٢/١٤ (رقم ٧٥) . وقد أشار إلى ذلك ابن إياس في (بدائع الزهور) ج٣ ص ١٦٨-١٦٩، حيث ذكر أنه سُتق على جُمّيزة بـ (غيظ الحاجب) بعد أن كان السلطان الأشرف قايتباى قد عفا عنه، وذكر بعضاً ممن عوقبوا ذلك اليوم معه وترجم لأحدهم، لكن ابن إياس لم يُشر - في هذا الموضع - إلى الجريمة التي ارتكبتها تاج الدين، ومن معه .

(٦) السابق ١٢/٦٢ (ترجمة سعادات بنت الشيخ نور الدين البوشى، وعلاقتها بزوجه البقاعى رقم ٣٧٧) وراجع تعليق السخاوى على هذا التعنت في (الذيل على رفع الإصر) ص ٣٤٦ .

ب- من جرائم بعض النساء، وعاداتهن الذميمة :

من جرائم النساء فى ذلك العصر إقدام بعضهن على شكاية أزواجهن والادعاء عليهم أمام السلطان ؛ زوراً وبهتاناً ؛ لمجرد وجود خلافات معهم ^(١)، بما يسئ للرباط المقدس بين الزوجين . وكذلك وُصِم هذا العصر بنماذج شائنة للمرأة المنحرفة الخائنة الزانية ^(٢)، والمرأة الكاذبة المخادعة لزوجها ^(٣)، والمرأة المحتالة الكاذبة المستغلة لسذاجة من يتعاملون معها، وتكتسب من وراء ذلك أموالاً كثيرة ^(٤)، إضافة إلى المرأة المغنية التى تفسد الرجال، وتجرفهم إلى تيار الانحراف ^(٥) .

ومن العادات الذميمة : شيوع السحر بين الضرائر ^(٦)، وزيارة النساء للمقابر، وما يرتكب هناك من حماقات وبدع أيام الجُمُع، وما يقمن به من المآثم والعزاء هناك ^(٧)، والمبالغة فى مظاهر الحزن والسخط على قضاء الله وقدره، لدرجة أن إحداهن ماتت من عظم اللطم على وجهها وصدرها، مما لم يُعهد مثله ^(٨) .

ثالثاً، وأخيراً - ملامح سريعة من حياة المرأة العامة :

طال حديثنا - نوعاً ما - عن (ملامح المرأة الخاصة) ؛ نظراً لجدّة ما فيها من مادة تاريخية، وقضايا كثيرة متشعبة، تقتضى معالجة هادئة متأنية، خاصة أن الباحثين - فيما أعلم - لم يتطرقوا للتركيز عليها على هذا النحو . أما حياة

(١) راجع تفاصيل ذلك بين أبى السعادات البلقينى قاضى الشافعية، وزوجته وابنة عمه، وما جرّه ذلك على الزوج من خطوب ومحن، حيث طالته بماتين وخمسين ديناراً ادعت استدانته إياها . ويتعجب الصيرفى - فى النهاية - من إبقاء الزوج على مثل هذه الزوجة فى عصمته . (إنباء الهصر ص٣٦٥-٣٦٦) .

(٢) المصدر السابق : ص٣٦٩-٣٧٠ .

(٣) تزوج شخص امرأة، ثم طلقها، فادعت عليه أنها حامل، فأنفق عليها، ولم يظهر لها حمل وتزوجت غيره، فشكاها يريد استرجاع المال الذى استولت عليه منه . (السابق : ص٣٨٢-٣٨٣) .

(٤) حيث قام رجل وامرأتان بخداع الناس، وزعموا أن السلطان فرض على كل دكان بالشارع درهماً لامرأتين لدين أصابهما، وداروا فى شوارع القاهرة يجمعون الأموال . فلما بلغ ذلك السلطان، أحضرهم، وأمر بمعاقبتهم والتشهير بهم . (حوادث الدهور ج١ ص٤١١) .

(٥) بدائع الزهور ٣/١٨٥-١٨٦ . (٦) حوادث الدهور لابن تغرى بردى ١/١٢٦ .

(٧) السلوك ج٤ ق١ ص٥٩٤ . (٨) حوادث الدهور ١/٤٢٢ .

المرأة العامة، فقد تطرق إليها الباحثون بصورة أو بأخرى (خاصة جانبها السياسي) ؛ ولذلك فإنني سأسلط الضوء -في تناولي الحياة العامة للمرأة- على النواحي الدينية والاجتماعية والثقافية ما أمكن، ولكن بطريقة موجزة في إيراد النماذج ؛ حتى لا يتضخم البحث دون داعٍ، مكتفياً بالإلمام بالنقاط الأساسية التي تكمل صورة المرأة إلى حد ما في القرن التاسع الهجري .

(١) مشاركة المرأة في الحياة السياسية العامة :

لعبت المرأة دوراً مهماً في سياسة الدولة، ومشاركة زوجها السلطان في تدبير شؤون السلطنة، بل في فرض شخصيتها عليه . ومن أبرز هؤلاء النسوة اللاتي يُضرب بهن المثل في نفوذ الكلمة وعلو المكانة خوند زينب والدة المؤيد أحمد، وزوجة السلطان الأشرف إينال (٨٥٧-٨٦٥هـ) ^(١) . كانت هذه المرأة تمسك في يديها سلطة تولية وعزل الأُمراء . وكان السلطان منساقاً تماماً لأوامرها، حيث لا اختيار له معها ^(٢) . وكانت تبدي بعض زوجات السلاطين رأياً في جنسيات جند الدولة، فقد أشارت زوجة السلطان الظاهر برقوق عليه سنة ٨٠١هـ ألا يقتنى المماليك الجراكسة، وأن يقصر جنده على التتر، والجاركس، والروم، والتركمان ؛ كي يستريح هو وذريته من بعده . وأقر السلطان بصواب هذا الرأي ^(٣) .

وكانت المرأة تلعب دوراً كبيراً مؤثراً في ترقية بعض الرجال في مناصب الدولة، فقد كانت المصاهرات على رأس السبل التي يسلكها الطامحون المتطلعون للارتقاء في وظائف الدولة . لقد كان السلطان الظاهر قانصوه (٩٠٤-٩٠٥هـ/ ١٤٩٨-١٥٠٠م) - في أول أمره - أحد مماليك السلطان الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م)، وكان أمياً لا يعرف شيئاً ؛ لأنه جُلب من بلاده كبيراً، قد شرع فيه الشيب، وأخذ السلطان قايتباي يرقِّيه ؛ لأنه

(١) راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٥ وما بعدها، ونظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي (طبعة بتحقيق : فيليب حتى ١٩٢٧م) ص ٩٣ .

(٢) الضوء اللامع ١٢/٤٤-٤٥ (رقم ٢٦١)، وبدائع الزهور لابن إياس ٣/١٥٦-١٥٧ .

(٣) النجوم الزاهرة ١٢/٧٢ .

أخو زوجته، ثم إنها التي بذلت الأموال للجنود، ومكنته من الخزائن، حتى ملكوه السلطنة بعد قايتباي (١). وبلغ من سطوة زوجة السلطان أنها صار لها ولولدها نصيب وافر مع السلطان في كل هدية ورشوة (٢). وللمرأة دور مهم في باب الوساطات والشفاعات لبعض الأمراء، فعن طريق أم الملك المنصور عبدالعزيز بن الظاهر برقوق عفا برسباي عن بيِّغ الظاهري، ونقله من دمياط إلى القدس، ثم أنعم عليه بإمرة مائة بالقاهرة، وتقدمة ألف، وصار أمير مجلس (٣). وأخيراً، فقد كانت المرأة - بعيداً عن نساء البلاط - قادرة على رعاية الأوقاف، وإدارة شئونها، مثل: زينب بنت القاضي محمد بن أحمد بن عبدالعزيز النويري المكي، التي كانت ناظرة على أوقاف والدتها (ت ٨٢٣هـ) (٤).

(٢) مشاركة المرأة في الحياة الدينية، والاجتماعية :

من خلال النصوص التاريخية في مصادرنا، وبعد تتبع تراجم النساء في المظان المختلفة لها خاصة (الضوء اللامع)، خرجنا بمعلومات قيمة عن نماذج نسائية راقية دينياً وخلقاً، وعبادة وصلاً، وإيجابية في إفادة مجتمعها، ومد يد العون لكل ذي حاجة، مع تكثيف تقديم الخدمات المتعددة، والرعاية الطبية لبنات جنسهن . ومن هذه النماذج المتنوعة ما يلي :

أ- شيرين بنت عبد الله الرومية : أم الناصر فرج بن برقوق، وكانت بنت عم سيدها . فلما تسلطن ابنها، صارت خوند الكبرى، وسكنت قاعة العواميد بقلعة الجبل . ومن بديع جمالها يقال : سحرته بعض الخوندات من زوجات أبي ولدها ؛ حسداً وبغضاً . وعلى كل، فقد سارت سيرة حسنة من الحشمة والرئاسة والكرم، والخير والدين . ولها مآثر حسنة، ومعروف سائر، حيث جددت بمكة رباط الخوزي، وأصلحت ما تهدم منه، وأوقفت عليه وقفاً،

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (ط. دار الكتب العلمية - بيروت) ج١ ص٣٨٩-٣٩٠ (رقم ٣٧٦-٣٧٧).

(٢) النجوم الزاهرة ١٦ / ٧٠، والبذل والبرطلة للدكتور أحمد عبد الرازق (ط. الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٩م) ص٣٥.

(٣) المنهل الصافي ٣ / ٤٩٢ . (٤) الضوء اللامع ١٢ / ٤٦ (رقم ٢٦٥).

وجعلت على تربة ولدها الناصر بالصحراء أوقافاً، وكذا على عدة قراء بمدرسة الملك الظاهر برقوق بين القصرين . توفيت سنة ٨٠٢ هـ (١) .

ب- زينب بنت العلاء زوج الأشرف إينال : تلك التي تزايدت ثروتها إلى حد لا ينحصر، حيث لم تمثل خمسون ألف دينار حملتها إلى خشقدم شيئاً مما ادخرته . وأقامت الدور الكثيرة، وعملت رباطاً حسناً للأرامل . وتوفيت وقد قاربت الثمانين من عمرها (٢) .

ج- أم هانئ بنت علي بن أبي البركات المكية : أقبلت على الطاعة والعبادة، والطواف والاعتمار على قدميها، مع التنفل الكثير، وقيام الليل، مع ير الفقراء والتودد إليهم . دفنت بالبقيع إلى جانب ابن عمها، وزوجها، وكانت تتوقع وفاتها في الأراضي المقدسة (٣) .

د- فائدة نزيلة مكة : لقبت بالشيخة ؛ لأنها كانت شيخة رباط الظاهرية أسفل مكة . وكانت تذكر بين النساء بالخير والحفظ، والوعظ . وكانت حرة، أثنى عليها بالخير والعبادة ومحبة الفقراء والإحسان إليهم . وكانت قابلة لنساء أهل مكة (٤) .

٣- مشاركتها في الحياة الثقافية :

لم تكن المرأة في القرن التاسع الهجري حبيسة دارها، قانعة بالانكفاء على الذات، وقصر الاهتمام على زوجها وأولادها وبيتها، لكنها كانت تشارك بفاعلية وإيجابية في الارتقاء بالحركة الثقافية في عصرها، فكانت طالبة للعلم، تغشى مجالس العلماء، وتروى الأحاديث النبوية، وتستظهر بعض كتب العلم المفيدة وتفيد طلاب العلم . ومن هؤلاء النسوة :

أ- بنات عدد من علماء العصر، مثل : بركة، وجويرية، وزينب بنات

(١) راجع : تاريخ ابن قاضي شعبة ج٤ ص١٢٦، والمنهل الصافي ٦/٣١٦-٣١٧، والضوء اللامع

٦٩/١٢ - ٧٠ (رقم ٤٢٧) .

(٢) المصدر السابق ١٢/٤٤-٤٥ (رقم ٢٦١) .

(٣) السابق ١٢/١٥٧-١٥٨ (رقم ٩٨٢) .

(٤) السابق ١٢/١١٤ (رقم ٦٨٩) .

الحافظ المحدث العراقي^(١) (ت ٨٠٦هـ) . وهناك أسماء بنت أحمد بن إسماعيل ابن عمر بن كثير الدمشقي، فهي بنت ابن المفسر والمحدث الأشهر الإمام ابن كثير (عليه رحمة الله)، فهي - إذن - من بيت علم ورواية^(٢) .

ب- أمة الخالق بنت الزين عبد اللطيف : سمعت قطعة كبيرة من سيرة ابن هشام، ومن مسند أحمد بن حنبل، وأجازت لها رواية الحديث النبوي الشريف عائشة بنت ابن عبد الهادي، وآخرون . وكانت صالحة كاتبة فاضلة، تديم تلاوة القرآن بالمصحف، وحفظت بعضه، وبعض كتاب المنهاج، وجميع ألفية ابن مالك، وغير ذلك^(٣) .

ج- بيرم بنت أحمد بن محمد الديروية المالكية : نشأت كوالدها تقرأ القرآن، وتخالط الفقهاء . وتلقت القراءات السبع، ودخلت مع أبيها بيت المقدس، فقرأت على من به من الشيوخ، ووعظت النساء . وأكثرت من مطالعة رياض الصالحين، والأربعين النووية، وعقيدة الغزالي وغيرها . تزوجها شيخ البلد أحمد بن ترميس، فتغير حالها بمخالطته^(٤) .

د- رقية بنت يحيى بن عبد السلام المدنية : أجاز لها رواية الحديث الشريف كبار الأئمة المحدثين من أمثال : المزني، والذهبي، والبرزالي، وابن سيد الناس، والقطب الحلبي، ومغلطاي في آخرين من المصريين والشاميين . كما سمع منها بعض الأئمة أيضاً^(٥) . وتجدر الإشارة إلى اهتمام الآباء بتحفيظ بناتهم القرآن الكريم، وسماع أحاديث صحيح البخاري ؛ ولذلك نجد زينب بنت علي بن محمد السبكي يسميها أبوها البخاري على عائشة بنت ابن عبد الهادي^(٦) . أما زينب بنت علي بن محمد الديروية، فحفظها أبوها القرآن، وعلمها الكتابة، وقرأت على زوجها الشمس بن رجب غالب الصحيحين^(٧) .

هـ- عائشة بنت علي بن محمد القاهرية : حضرت مجالس العلماء وأجازوا

(١) راجع تراجمهن في (نظم العقيان) للسيوطي ص ١٠١، ١٠٣، ١١٤ .
(٢) الضوء اللامع ٦/١٢ (رقم ٢٨) .
(٣) المصدر السابق ٩/١٢ (رقم ٤٦) .
(٤) السابق ١٥/١٢ (رقم ٧٩) .
(٥) السابق ٣٦/١٢ (رقم ٢١١) .
(٦) السابق ٤٤/١٢ (رقم ٢٥٨) .
(٧) السابق ٤٥/١٢ (رقم ٢٦٢) .

لها، وقرأت بعض القرآن، وتعلمت الخط، وافية مستحضرة السيرة النبوية، تكاد تذكر كل غزوة بتمامها، حافظت لكثير من الأشعار، لا سيما ديوان البهاء زهير فهي سريعة الحفظ، وكانت من بيت علم ورواية مع متانة الدين، وكثرة التبعيد، والمحاسن الجملة، بحيث قلَّ أن ترى العيون من النساء مثلها . وكانت تتحرى الطهارة وتتشدد فيها، وتطالع -عن فهم- كتب الفقه. توفيت سنة ٨٤٠هـ^(١).

و-عائشة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسية : تلقب بـ (مسندة الدنيا)؛ لبراعتها ودقتها في تلقي الحديث وروايته . اشتهرت برواية سيرة ابن هشام، وصحيح البخاري ومسلم . أخذ عنها الأئمة في الآفاق لاسيما الرحالة منهم . وكانت سهلة في الإسماع، لينة الجانب، آخر من حدث بصحيح البخاري بإسناد عالٍ بالسماع . ولدت سنة ٧٢٣هـ، وتوفيت سنة ٨١٦هـ^(٢) . وأخيراً، فاطمة بنت القاضي كمال الدين محمود بن شيرين الحنفي، تلك المرأة التي أطل السخاوي في الترجمة لها ؛ نتيجة كثرة النماذج التي أوردها لها شعراً ونثراً . وكان على صلة وثيقة بها، أهداها كتابه : (ارتياح الأكباد) ؛ لتتسلى بقراءته عن ابتها التي فقدتها . وقد مدح السخاوي مطارحاتها الشعرية، وملكاتنا الأدبية، وكثيراً ما تراسلا ؛ إذ كانت تستفتيه في أمور الفقه^(٣) .

وهكذا، أرجو أن يكون هذا البحث قد خطا خطوة إلى الأمام نحو دراسة شاملة متكاملة لحياة المرأة الخاصة والعامة في القرن التاسع الهجري معتمداً -

(١) الضوء اللامع ١٢/٧٨-٧٩ (رقم ٤٨٢)، وأعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحالة (م. الهاشمية بدمشق) ج٣ ص١٨١-١٨٢ . ومن النساء اليمينيات الفقيهات المتمرسات ما دنا بصد من لهن اهتمام بالفقه : الشريفة فاطمة بنت الإمام المهدي أحمد بن يحيى، التي اشتهرت بالعلم، ولها مناقشات فقهية مع والدها، ولها قدرة على استنباط الأحكام، وكان زوجها الإمام المطهر يلجأ إليها في حل معضلات الفقه، ثم يخرج إلى الطلاب، فيشرحها لهم، فيقولون : ليس هذا منك، بل هو من خلف الحجاب . توفي والدها سنة ٨٤٠هـ، وتوفيت فاطمة قبله . (البدري الطالع للشوكاني) ج١ ص٨٦، ٣٦٩، وأعلام النساء لكحالة ٤/٣١-٣٢ .

(٢) الضوء اللامع ١٢/٨١ (رقم ٤٩٥)، وأعلام النساء لكحالة ٣/١٨٧-١٨٨ .

(٣) الضوء اللامع ١٢/١٠٧-١١٢ (رقم ٦٧٤)، وأعلام النساء لكحالة ٤/١٠٢-١٠٦ (جعل تاريخ وفاتها سنة ٩٤١هـ خطأ) .

بالأساس - على أهم مصدر لتراجم النساء فى تلك الفترة التاريخية ألا وهو (الضوء اللامع) للسخاوى، إلى جانب المصادر التاريخية الأخرى التى تناولت أحداث فترة البحث . وقد عالجتنا قضايا الزواج، والطلاق، وتعدد الأزواج فى طبقات المجتمع المختلفة، وحاولنا سبر أغوار هذه القضايا المهمة، وتحليل الأسباب الكامنة وراء ظواهرها، والنتائج المترتبة عليها دون اللجوء إلى الأحكام العامة الانطباعية . وركزنا تركيزاً خاصاً على المشكلات التى جابهت المرأة، ومظاهر المعاناة التى قاستها على الصعيد الاقتصادى، والصحى، والنفسى والاجتماعى . وأخيراً، حاولنا استكمال ملامح الصورة بعرض موجز مركز للخطوط العامة لمشاركات المرأة فى السياسة العامة، والحياة الدينية والاجتماعية، والثقافية .

■ قوائم المصادر والمراجع ■

- القرآن الكريم .

أولاً- المصادر :

✽ ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفى ت ٩٣٠هـ) :

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور . مركز تحقيق التراث . الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م . تحقيق، وتقديم : محمد مصطفى .

✽ الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى ت ٥٦٠هـ) :

- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . الطبعة الأولى - عالم الكتب (بيروت)، ١٤٠٩-١٩٨٩م .

✽ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤هـ) :

- حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور . لجنة إحياء التراث الإسلامى (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) . الجزء الأول، ١٤١١هـ/١٩٩٠م . تحقيق : فهميم محمد شلتوت .

- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥/١٩٨٦م . تحقيق : أ.د. محمد محمد أمين، وأ.د. نبيل محمد عبدالعزيز . تقديم : أ.د. سعيد عاشور .

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . ط١- دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م . تقديم، وتعليق : محمد حسين شمس الدين .

✽ ابن حجر العسقلانى (أحمد بن على ت ٨٥٢هـ) :

- إنباء الغمُر بانباء العُمُر . لجنة إحياء التراث الإسلامى (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) ٤ أجزاء، ١٩٩٤-١٩٩٨م . تحقيق، وتعليق : أ.د. حسن حبشى .

- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . الناشر : أم القرى للطباعة والنشر
بالقاهرة، ١٩٦٦م . تحقيق : محمد سيد جاد الحق .
- * الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومى ت ٦٢٦هـ) :
معجم البلدان . ط١- دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٠م . تحقيق : فريد
عبد العزيز الجندى .
- * السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ) :
- الذيل على رفع الإصر، أو بغية العلماء والرواة . سلسلة تراثنا، الدار
المصرية للتأليف والترجمة، د.ت . تحقيق : د.جوده هلال، ومحمد
محمود صبح . مراجعة : على البجاوى .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . الناشر : دار الكتاب بالقاهرة، د.ت .
- * السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١هـ) :
- تاريخ الخلفاء . ط١- دار القلم (بيروت) ١٩٨٦م . تحقيق : قاسم
الشماعى، ومحمد العثمانى .
- نَظْمُ العِقيَانِ فى أعيان الأعيان . المطبعة السورية الأمريكية - نيويورك
١٩٢٧م . حرره : د.فيليب حَتَّى .
- * الشوكانى (محمد بن على بن محمد الشوكانى ت ١٢٥٠هـ) :
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . الطبعة الأولى - دار الكتب
العلمية (بيروت) ١٤١٨هـ/١٩٩٨م . وضع حواشيه : خليل المنصور .
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار . الناشر : المكتبة
التوفيقية، د.ت .
- * الصيرفى (على بن داود الجوهري ت ٩٠٠هـ) :
- إنباء الهصرُ بأنباء العصر . سلسلة التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢م . تحقيق، وتقديم : أ.د.حسن حبشى .

- * العيني (بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى ت ٨٥٥هـ) :
- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ الحمودى . سلسلة الذخائر (٩٢)، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣م . تحقيق، وتقديم : فهم محمد شلتوت . مراجعة : د. محمد مصطفى زيادة .
- * الفيروزابادى (مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى ت ٨١٧هـ) :
- القاموس المحيط . نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ . الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .
- * ابن قاضى شهبة (تقى الدين أبو بكر بن أحمد الدمشقى ت ٨٥١هـ) :
- تاريخ ابن قاضى شهبة . الجزء الثالث، والرابع . المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ١٩٧٧م، ١٩٩٧م . حققه : عدنان درويش .
- * القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ) :
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . طبع، ونشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- * المقرئى (أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) :
- الخِطَط، أو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . الناشر : مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ١٩٨٧م .
- السلوك لمعرفة دول الملوك . الجزء الثالث، والرابع . مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية بالقاهرة، م. دار الكتب . ١٩٧١-١٩٧٢م . تحقيق : أ.د. سعيد عاشور .
- المقفى الكبير . الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامى - بيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م . تحقيق : محمد العلاوى .
- * ابن منظور (جمال الدين بن محمد بن مكرم ت ٧١١هـ) :
- لسان العرب . طبعة دار المعارف بالقاهرة، د.ت.

ثانياً- المراجع :

- * أ.د. أحمد عبد الرازق أحمد : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك (دراسة عن الرشوة) . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ م .
- المرأة في مصر المملوكية . الناشر : مكتب الشريف، وسعيد رأفت بالزيتون - القاهرة، ١٩٧٥ م .
- * أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك . الناشر : دار النهضة العربية بالقاهرة، د.ت .
- * أ.د. عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (دراسة شاملة للنظم السياسية) . الجزء الأول، ط٢- مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧٩ م .
- * عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام . الطبعة الثانية، م. الهاشمية بدمشق، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩ م .
- * أ.د. قاسم عبد قاسم : دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي (عصر سلاطين المماليك) . ط٢- دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٣ م .
- * أ.د. محمد بلتاجي حسن : دراسات في أحكام الأسرة . الناشر : مكتبة الشباب ١٩٨١ م .
- * محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ م . طبع، ونشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ م .
- * محمد قنديل البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . طبع، ونشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ م .
- * نخبة من العاملين بجمع اللغة العربية بالقاهرة : المعجم الوسيط، ط٣- مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية ١٩٨٥ م .
